

قراءات في فكر الفقيه المجدِّد المرجع
السيِّد محمَّد حسين فضل الله (رض)

السيّد والوحدة الإسلاميّة:

د. محمد سليم العوّا

السيّد والقضية الفلسطينية:

الباحث منير شفيق

السيّد وسيادة العقل:

العميد الركن د.أمين حطيط

السيّد وفعاليّة العقل:

د. السيّد محمّد رضا فضل الله

السيّد والتجديد:

سماحة الشيخ علي مرعي

شـــــهـــــادات

قراءات في فكر الفقيه المجدِّد المرجع

السيّد محمّد حسين فضل الله قدّس سرّه

بسم الله الرحمن الرحيم

شهادات

قراءات في فكر الفقيه المجدِّد المرجع
السيّد محمّد حسين فضل الله قدّس سرّه



السيّد والوحدة الإسلاميّة: د. محمد سليم العوّا

السيّد والقضية الفلسطينية: الباحث منير شفيق

السيّد وسيادة العقل : العميد الركن د.أمين حطيط

السيّد وفعاليّة العقل: د. السيّد محمّد رضا فضل الله

السيّد والتجديد: سماحة الشيخ علي مرعي



المقدّمة

...و تبقى الحاجةُ ملحّةً إلى فكره.. إلى رؤاه، نعود إليه و هو في جوار ربّه، كما كنّا نعود إليه في حياته... و كم كانت معبّرة كلمة الصديق العُماني أبي نقاء وهو يعزّيني بوفاة السيّد (رض)، حيث قال: سيبقى السيّد بيننا حيّاً وحيّاً، وليس حيّاً و ميّتاً...

هكذا سيبقى فينا، لقد درّبنا على الوفاء، و لن نكون إلا الأوفياء لخطّه..لقد درّبنا على الصّدق، و لن نكون إلا الصّادقين في خطّ رسالته.. لقد درّبنا أن نعيش للإسلام، و هكذا سنبقى بإذن الله..نستلهم عشقه الربّاني، و لطالما ردّد أمامنا: «إنّي مولعٌ بالإسلام أتبعه» سنتبعه اتّباع الفصيل إثر أمّه..

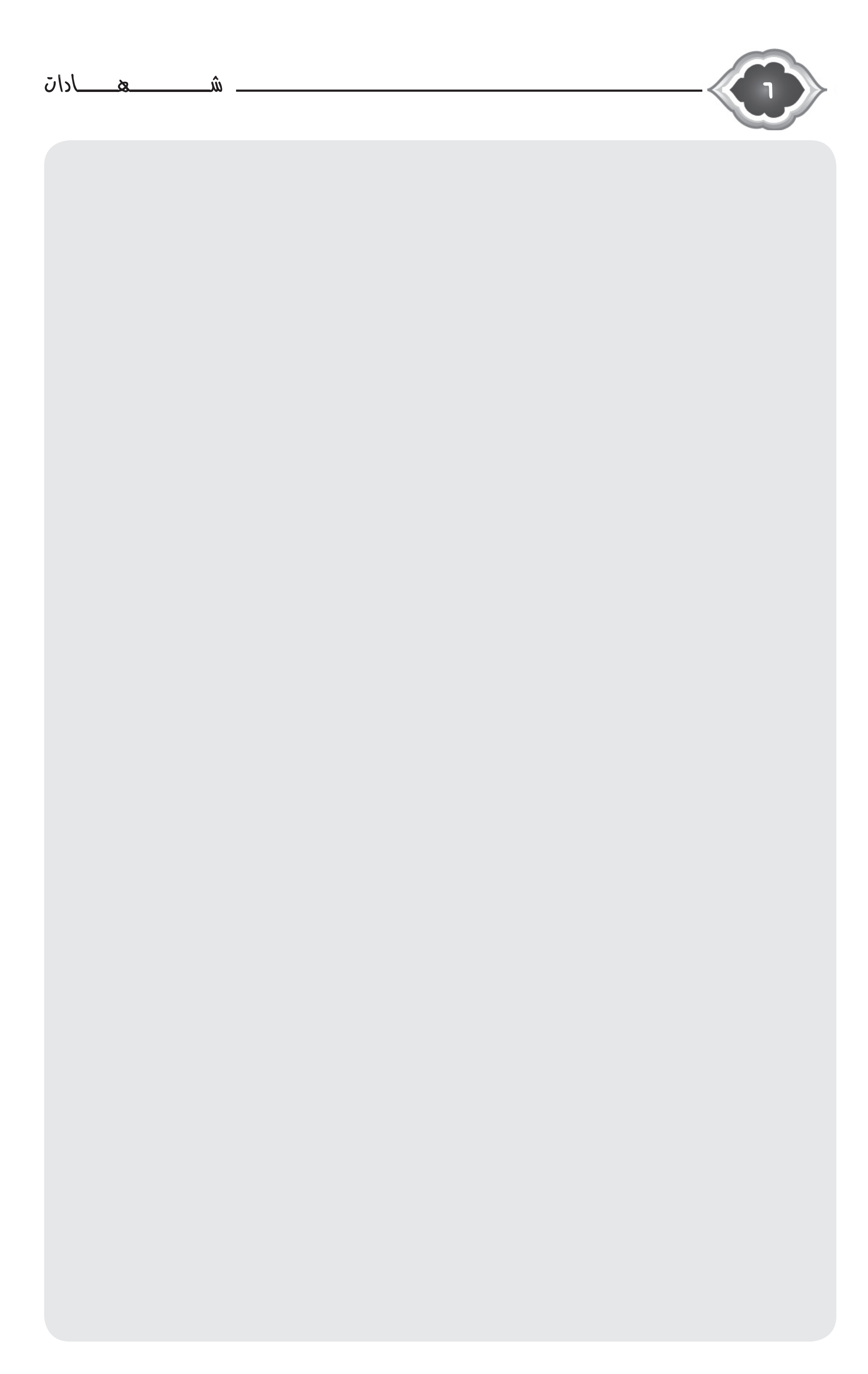
كلماتٌ نابعةٌ من القلب، شهاداتٌ ممهورةٌ بالوفاء، أطلقها في مناسبات عدّة مجموعةٌ من الذين أتقنوا بجدارة لغة العقل، نضعها بين أيدي القرّاء الكرام لتكون زاداً معرفيّا و إنسانيّاً في خطّ الإسلام تستفيد منها الأجيال المتعلّقة بأملٍ مشرقٍ نحو غدٍ مشرقٍ...

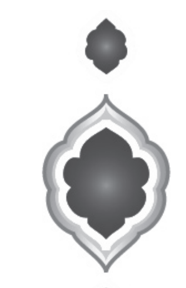
واللّه المسدِّد و الموفّق

مدير المركز الإسلامي الثقافي

شفيق محمد الموسوي

ربيع أوّل ١٤٣٢ هـ - شباط ٢٠٠١ م



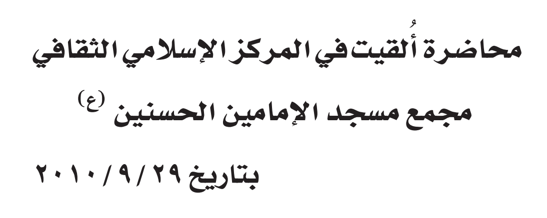


السيد فضل الله وحدوياً:

خصوصيّة عقل و معالم منهج

د. محمد سليم العوّا

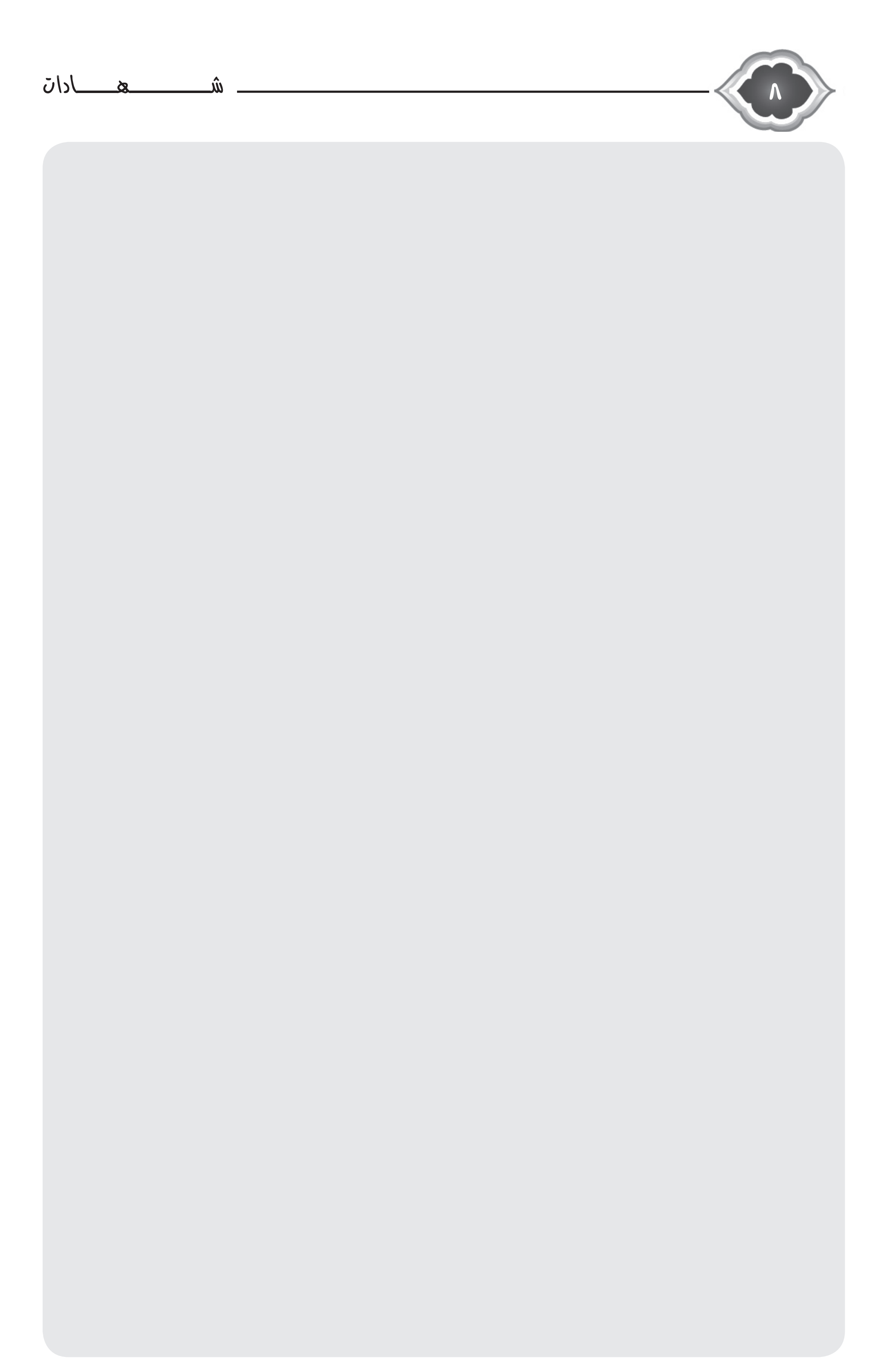




محاضرة أُلقيت في المركز الإسلامي الثقافي

مجمع مسجد الإمامين الحسنين (ع)

بتاريخ ٢٩/٩/٢٠١٠



عندما دعاني أخي الكريم الأستاذ شفيق الموسوي لأتحدّث إليكم عن سماحة العلامة آية الله العظمى السيّد محمد حسين فضل الله (عالِماً وحدويّاً) لم أتردّد لحظةً في أن أقبل هذه الدّعوة الكريمة، لأنّ الصّلة القديمة الممتدّة مع سماحته (رحمه الله ورضي عنه) كانت تدور في فلك هذه الوحدة، حيث لم يكن لنا لقاءٌ خلا من الحديث عن الوحدة الإسلامية، ولم يكن بيننا تواصلٌ إلاّ لدعم هذه الوحدة وتأكيدها.

خصوصيّة عقل

عندما أذكر السيّد محمد حسين فضل الله، أذكر السماحة الإسلاميّة المتمثِّلة لا في الذّات الإنسانيّة وحسب، وإنّما أذكرها في عقلٍ هائلٍ جبّارٍ، يكاد يكون متفرّداً لا عن عقول آلاف الأشخاص، بل ربّما عن عقول عشرات آلاف الأشخاص الذين مررت بهم منذ طفولتي وحتّى اليوم.. كان لسماحته خصوصيّةٌ بين هذه العقول، خصوصيّةٌ تجذبك إليه، وتستمتع بالحديث معه، وتستعيد مرّات ومرّات. كلّما خلدت إلى نفسك ـ الجملَ والعبارات التي سمعتها منه.

الوحدويُّ الصادق

وعندما أُتيحت لي هذه الفرصة لأتحدّث عنه عالِماً وحدويّاً، شعرتُ أنّ الذي أُثير للحديث، موضوعٌ، بقدر ما هو أَثيرٌ عندي، بقدر ما هو محورُ عمل الشيخ الجليل في حياته كلِّها، فعمل على هذا الموضوع حوالي نصف قرن وثماني سنوات. وتحديد هذا الرقم يعود إلى أوّل قصيدة قالها بشأن الوحدة الإسلامية، وقد كان قادماً من

النجف ليزور بيروت، وألقاها في حفل تأبين السيد محسن الأمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث جاء في بعضها:

وَأريتنا أنَّ الإخا	ء من الهدى بيتُ القصيدِ
و مناهجٌ توحي لنا	روحَ التضامنِ والصمودِ
فالمسلمون لبعضهم	في الدين كالصّرحِ المشيدِ
لا طائفيّةَ بينَهم	ترمي العقائد بالجحودِ
والدينُ روحٌ برَّةٌ	تحنو على كلِّ العبيدِ
ترمي لتوحيد الصّفو	ف ودفع غائلة الحقودِ
عاش الموحِّدُ في ظلا	ل الحقّ في أفق الخلودِ

هذا كلامٌ قاله رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صيف عام ١٩٥٢م، وقد توفيّ في صيف ٢٠١٠ م، وهو منذ ذلك التاريخ إلى أن لَقِيَ ربَّه سبحانه يعمل للوحدة الإسلامية.

الوحدة الإسلامية - إخواني أخواتي - تُعتبر ومنذ سقوط الخلافة العثمانية هي آخر عوامل التوحيد السياسيّ بين المسلمين، ولذا، فهي المطلب الرئيسيّ للجماهير المُسْلمة، وهي القضيّة المركزيّة للعلماء المخلِصين العاملين في واقع الأمّة كلّها، شيعتها وسنّتها، عربها وعجمها على حدٍّ سواء..

وما ينبغي ذِكره في هذا المجال أنَّه منذ الثُّلث الثاني من القرن العشرين الميلاديّ وحتّى اليوم حيث نحن في السّنة العاشرة التي تكاد تنقضي من القرن الواحد والعشرين، لا هاجس أهمّ، ولا مفهوم أكثر مركزيّة عند علماء الأمّة المخلِصين من وحدة الأمّة... وهم يتناولون هذه القضيّة من جوانب مختلفة، وينظرون إليها من زوايا متنوّعة، لكنّهم يدورون حول هذه الوحدة..

وكـــلٌّ يــدَّعــي وصـــلاً بـليـلـى   ولــيــلــى لا تــقــرُّ لــهــم بــذاكَ

ومع ذلك، هناك ملايين الناس من المسلمين الذين يصدّقون الدعوة إلى الوحدة ويعيشون الشعور الوحدويّ ويعملون على نشره، لكنّهم دائماً يتطلّعون إلى ما يسمّونه القيادة أو إلى اليد التي تحمل اللّواء.. وأنا هنا، ألوم أخواتي وإخواني في هذا المطلب. مطلب التطلّع إلى القيادة بمعنى إذا تحرَّكت هذه القيادة تحرّكوا وإذا توقّفت عن الدعوة إلى الوحدة توقّفوا. لأنَّ كُلًّا منّا في موقعه ومكانه وعمله هو قائد، إنَّ كلَّ أخت في بيتها وبين أصدقائها وفي جامعتها أو مدرستها أو مستشفاها وحيثما تعمل، هي قائدة.. وهكذا كلُّ أخ، لأنَّ كلّ إنسان، مسؤول، وبقدر مسؤوليّته محاسَبٌ أمام الله عزّ وجل ﴿**ولا تزرُ وازرةٌ وزرَ أُخرى**﴾ [الأنعام: ١٦٤] ولن يُقبل من أحد أن يقول: ﴿**رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا**﴾ [الأعراف: ٣٨] سيكون لكلِّ إنسانٍ ميزانُه الخاص.. ولذا، فلينظر أحدُنا في أيّ كفّتَيْ ميزانه ستُوضع مشاعرُه الوحدويّة، أو دعوته إلى الوحدة، أو عمله في نطاق الوحدة..

وحتّى نعيش مسؤوليّتنا أكثر استمعوا إلى ما جرى بيني بالأمس وبين صديقٍ حبيبٍ، حيث كان هذا الصديق مسيحيَّ الأبوَيْن، وعاش إلى سنّ الثلاثين من عمره مسيحيّاً، فأسلم منذ نحو خمسٍ وثلاثين سنة.. يحدّثني هذا الصديق بالأمس قائلاً: واللهِ لو تعاملت مع الشيوخ في أوّل عهدي بالإسلام لعدتُ نصرانيّاً، لكنَّ الله حماني، فلم أتعامل معهم إلاَّ في السنوات الأربع الأخيرة.. فسمعتُ من قول بعضهم كلاماً، ومن فعلهم رأيتُ شيئاً آخر، ومن إجرائهم اتّفاقات وعهوداً ومواثيق، ثم نَقضِهم ونكسِهم إيّاها، فلو أدركني ذلك في أوّل إسلامي لعدتُ نصرانيّاً كما كنت، لكنَّ الله حماني وجعلني لا أرى هذا إلاَّ في آخر العمر..

أصدُقكم القول إنّني شعرتُ بوخز الإبر، لأنَّ هذا منسوبٌ إلى العلماء، منسوبٌ إلى مَنْ نقف على أعتابهم ونخدمهم ونجري وراءهم، لنأخذ منهم العلم والفهم

والفقه وأسلوب الدعوة، فإذا كان هؤلاء وهم الأُسوة والقدوة للناس على هذا النحو من السوء الذي يُوشك معه حديثُ عهدٍ بالإسلام(كهذا الأخ الذي كان نصرانيّاً) أن يعود أدباره لولا أنْ مَنَّ الله عليه بالتمكُّن من هذا الدّين.

ولذلك، أنا أقول بأنَّ على كلٍّ منّا أن يكون قائدَ نفسه وقائدَ بيته وأصدقائه وقائدَ محيطه، وأن لا نستمع لِما يُقال لنا في الصباح، ليُقال عكسُه في المساء، أو ليُقال ضدّه في الصباح الثاني.. ينبغي أن نكون مفتوحي القلوب على الإخلاص، صادقي العزم على الصدق مع الله تبارك وتعالى... وليقُل مَنْ كان منّا عدوّاً للوحدة، محبّاً للعصبيّة، حريصاً على الفُرقة: أنا ضدّ هذا كلّه، لِيَقُلْهُ في اللّيل وفي النهار أمام الإعلام ومن ورائه، وليقُل مَنْ كان وَحدويَّ الفِكر والعمل والشعور: أنا وحدويٌّ، ليقل ذلك لأولاده ولزوجته، وليعمل على أساسه في الشارع والمحلّ والجامعة والمدرسة والبيت وفي كلِّ مكان، وعليه أن يكون في ذلك صادق اللّهجة، كما وصف النبيّ ﷺ أبا ذرّ (رض) عندما قال له: «**ما أقلّت الغبراء ولا أظلّت السماء أصدقَ ذي لهجة من أبي ذر**» يجب أن نكون صادقي اللّهجة كما كان الكرام من أصحاب رسول الله ﷺ.

وكان صدق اللّهجة من مميّزات السيّد محمد حسين فضل الله، حيث إنّي ما سمعتُ منه كلامَين قطّ في مسألةِ الوحدة، وما رأيته في مرّة - وكنتُ أراه مرّة في السّنة أو مرّة كلّ ستة أشهر- غيّر كلامه الذي قاله في المرّة السّابقة، وإنّما كان يزيده تأكيداً وإيضاحاً ويعمل بمقتضاه. كنتُ أسمعه في خُطب الجمعة وأسمع تسجيلات دروسه في تفسير القرآن، وأقرأ فتاواه على موقعه (بيّنات) أو ما يتكرّم فيُرسله إليَّ عن طريق مكتبه، فأرى رجلاً واحداً، لم أرَ فيه رجُلَين أبداً.

في أيّام المحنة التي تعرّض لها ظلماً، تصرّف بما يليق بالعلماء أن يتصرّفوا، وهذه شهادةٌ أشهد بها أمامكم، وأظنُّ أنّ معظمكم يعرف ما تعرّض له أكثر منّي،

لكنّي وقفتُ عليها بنفسي، وأشهدُ له بها وهو بين يديّ ربِّ العالمين.. كانت الوحدة الإسلامية عنده وعند العلماء المخلصين على مدى سنوات طويلة هي بديل التشرذم، وهي سبيل مقاومة الضعف السياسي والاجتماعي، وهي الأمل الذي يُعمَل من أجله، ويُسعى لتحقيقه، ويُدعى إليه في أوساط الإسلاميين الحركيّين والسياسيّين الوطنيّين في العالم الإسلاميّ كلّه.

وقد استمع إلى هذا النداء وصدَّقه وآمن به وسعى من أجله مَن استمع، وتعامى عنه وتغافل عن صدقه وحقيقته مَن أراد أن يتعامى ويتغافل.. ومع ذلك فإنَّ هذه الدعوة إلى الوحدة تكسبُ كلَّ يوم في المنطقة العربيّة والإسلاميّة وفي الأرض الأعجميّة الإسلامية وفي أوروبا وأميركا داخل مناطق المسلمين، أنصاراً جُدداً أكثر ممّا كان لها من مؤيّدين في اليوم الذي قبله.. ولم يكن هذا الأمل وذاك العمل متوجّهَيْن إلى تحقيق الوحدة السياسية مع أنّها ضرورةٌ وتحقيقها يفيدنا أضعافَ ما تفيدنا أنواع الوحدة الأخرى، لأنَّ العلماء أدركوا منذ اللّحظة الأولى أنَّ أمر الوحدة السياسيّة لا قِبَل لهم بتحقيقها، لأنّهم لا يملكون أدواتها ولا يستطيعون أن يدخلوا في مجالها، لذا، فإنّهم اختاروا مجالهم الذي فيه ينجحون، وملعبهم الذي يستطيعون فيه إصابة أهدافهم كلّها، دون أن يخسروا شيئاً، وهو الملعب الفكريّ والثقافيّ والفقهيّ والدينيّ، فسعوا من خلاله إلى وحدة هذه الأمة..

الوحدة عبادةٌ مرتبطةٌ بالتّقوى

إنَّ هؤلاء العلماء تجنّبوا الأهواء المحليّة والمطامع الذاتيّة والرغبات الشخصيّة، وعملوا عملاً مهمّاً صادقاً مخلصاً على حفظ القضيّة العامّة للأمّة ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢] وفي آية ثانية ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢]

فوحدة الأمّة مرتبطةٌ بعبادة الله ربّ العالمين، وهي منهج لهذه العبادة المرتبطة بالتّقوى التي محلّها قلبُ كلُّ فردٍ فينا، لأنّ التقوى عملٌ فرديٌّ ينعكس شعوراً جماعيّاً (نحن لا نجتمع هنا في هذه القاعة ونقول تعالوا نتّقِ الله مع بعض) هذا لا يصلح، لأنّ الذي يطّلع على القلوب هو وحده سبحانه الذي يعرف ما في قلبي وما في قلب غيري؛ وعلى هذا، فالأمّة الواحدة نظير التّقوى التي هي عملٌ فرديّ، حيث على كلّ واحدٍ فينا أن يعمل لهذه الوحدة والأمّة الواحدة، كما يقوم بفعل العبادة التي هي نمط اتّصال الفرد بربّ العالمين جماعةً في يوم الجمعة والأعياد وفي المناسبات الجماعية، وفُرادى في أوقات العبادات الأخرى صياماً وزكاةً وصدقة وما إلى ذلك.

من هنا، كانت الدعوة إلى الوحدة الفكريّة والثقافيّة والوصول إليها هي الأصل عند هؤلاء العلماء العاملين، وكان العمل لتحقيقها والوصول إليها هو الهدف.. ويعبِّر عن ذلك أحسن تعبيرٍ شيخُنا الجليل العلاّمة محمد الغزالي (رحمة الله عليه) في كتابه (دستور الوحدة الثقافيّة بين المسلمين) وعندما كنتُ أُراجع كتابات العلاّمة السيّد محمد حسين فضل الله عن العلماء الوحدويّين وجدته يشير إلى الشيخ محمد الغزالي ويعتبر أنّه الباقي من مدرسة دار التقريب في مصر، وهو الذي يحمل هذا اللّواء في هذا الزمن.. وحينها كنت أقول: سبحان الله يخطر في بالي الشخص، وأجد أنّ السيّد محمد حسين فضل الله يُشير إليه، «لأنّ الأعلام لا تختلف في شأنها الأنام» فالأعلام يفرضون وجودهم على الناس كلّهم ولا يستطيع أحدٌ أن يُنكر دور عَلَم من الأعلام لأنّه لم يَرَه ولم يقرأ له، لأنّ نور هؤلاء يشعُّ على الكون كلِّه وعلى الناس كلِّهم.

وكان من فرسان الوحدة ومن دعاة الفهم الصحيح لهذه الوحدة، على أنّها وحدة ثقافية فكريّة، هو السيّد محمد حسين فضل الله الذي ذكرتُ لكم مقطعاً من قصيدته المذكورة في كتاب «أعيان الشيعة» ومنشورة في ديوانه رَحِمَهُ ٱللَّهُ ...

تميّزٌ و ريادة

ومن خلال عشرات النّصوص التي قرأتها له تدلُّ كلُّها على إيمانه العميق بالوحدة الإسلامية، ويمتاز إيمانُه بهذه الوحدة بأنّه يزيد على الإيمان النظريّ دائماً التصوُّر العملي... فإذا تكلّم شخصٌ أمامه عن السُّنّة والشيعة، أتى بتصوّرٍ عمليٍّ، لأنّ التصوّر العمليّ يمتاز بميزتَين، القدرة على تحقيقه، فلا يكلِّف الناس ما لا يسعهم أن يعملوه، والقدرة الأخرى، هي قدرة تحقيق هدف الوحدة الذي يدعو إليه ويسعى إلى وقوعه في عالم النّاس. فإنّ سماحته يرى بأنّه لا يجوز أن يتحوّل التشيّع إلى عقيدة ذاتيّة في نفس الشيعيّ يحافظ عليها كما يحافظ الإنسان على عصبيّة تؤكّد ذاته، ولا أن يتحوّل التسنّن في نفس السُّنيّ إلى مثل ذلك، ولكن على الشيعة والسُّنّة أن يفكّروا في مسألة واحدة، وهي أنّهم مسلمون، بحيث يكون تسنُّنهم وجهة نظر في فهم الإسلام، وتشيُّعهم وجهة نظر في فهم الإسلام، وهو رحمه الله عندما يؤمن بذلك فإنّه ينسجم مع قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾[النساء: ٥٩].. فقاعدة الحوار بين السُّنّة والشيعة، كما يجد رحمه الله ترتكز على رجوع الجميع إلى الله وإلى الرسول وإلى القرآن الكريم... والقرآن الكريم كتابٌ واضحٌ يمكن للإنسان أن يرتكز في فهمه على القواعد المعروفة في اللّسان العربيّ... فالواحد منا لا يحتاج إلى تفسير معقَّد، أو إلى تفسير فقه الرازي الذي يحوي ٣٣ جزءاً، فيها كلّ شيءٍ إلاّ التفسير... وقد قال عنه العلماء: هذا كتابٌ حوى من كلّ علم زبدته، لكنّه لم يأتِ بزبدة علم التفسير، لأنّه انشغل بعلم الطبيعة والجغرافيا والفلسفة والكيمياء، ولم ينشغل بتفسير كتاب الله... أما كتاب الله فيكفي عُدَّةً لفهم المسلم إيّاه، فهماً يحقّق المقصود منه أن يعرف قواعد فهم لسان العرب، الفاعل والمفعول، والجار والمجرور والمضاف والمُضاف إليه... فإذا عرفتَ هذه القواعد استطعت أن تفهم الكتاب، لأنَّ الله تبارك وتعالى نزّله وقال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ

مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٤٠] وهنا نذكر أنّ مشايخنا الحَفَظة الذين كانوا يُحفِّظوننا في صغرنا القرآن، قالوا لنا بأنّ الذِّكر هنا بمعنى الحِفظ، أي يسّره الله للحِفظ، فلمّا كبرنا، عرفنا أنّ هذا التأويل متعسِّف، وأنّ الصحيح هو أنّنا عندما يسّرناه للذكر، يسّرناه للفهم والعمل به وللدّعوة إليه، وليس للحفظ كما يحفظه بعض قرّاء القرآن عن ظهرِ قلب...

إشكاليةٌ و حلٌّ

وعلى هذا الأساس يرى العلامة السيّد محمد حسين فضل الله أنّ تيسير القرآن للذِّكر هو للفهم والعمل به، ويمكن للإنسان أن يرتكز في فهمه على القواعد المعروفة في فهم لسان العرب... ثم يرى رَحِمَهُ اللهُ أنّ الأخذ بالسُّنّة النبويّة الشريفة نرجع فيه إلى الأصول في توثيق السّند... والأصول في توثيق السّند عند السُّنّة غير أصول توثيق السند عند الشيعة، والعلماء الذين يوثّقهم الشيعة غير العلماء الذين يوثّقهم السُّنّة... ومع ذلك هناك قَدْرٌ مشترك من الأحاديث بين السُّنّة والشيعة ليس بقليل، بل هو قدرٌ مشترك كبير، وسأشير إليه بعد قليل، لكن خارج هذا القدر المشترك، ماذا نفعل، هل نبقى مختلفين؟

وهنا أسأل: ماذا يجري إذا أنا أقررتُ حديثاً كذّبه إخواني الشيعة، أو قرّر إخواني الشيعة أنّ هذا النصّ حديث نبويٌّ وعملوا به، وأنا لم أجد هذا النصّ حديثاً نبويّاً..

للخروج من هذه الإشكاليّة كما أعتقد، يكون على الشكل التالي: إذا كان الحديث الذي يأخذ به الشيعة صحيحَ المعنى، فعلماء الرواية عند السُّنّة عندهم عبارة جميلة، يقولون فيها، هذا حديثٌ ضعيف السّند، صحيحُ المعنى.. ضعيف السّند يعني أنّ سلسلة رواة هذا الحديث لا تؤكّد أنّ النبيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قد قاله، وأمّا أنّه صحيح المعنى، معنى ذلك أنّه يندرج في قواعد الإسلام العامّة... ومن هنا فإنّي أقول

للشيعة: خذوا الأحاديث التي لا تقبلونها عن إخوانكم أهل السُّنّة إذا كانت صحيحة المعنى ولو كانت ضعيفة السّند، وليأخذ أهل السُّنّة الأحاديث التي لا يقبلونها عند إخوانهم الشيعة على أنّها صحيحة المعنى، ولو كانت ضعيفة السّند.

و هناك حديث، كثيراً ما أشار إليه العلامة السيد محمد حسين فضل الله في كتاباته عن الوحدة وهو «مَن لم يهتمَّ بأمور المسلمين فليس بمُسلم» وفي رواية «فليس منهم» وهذا موجود في المدرستَيْن، عند مدرسة أهل البيت ومدرسة السُّنّة، وكِلا المدرستَيْن لهما انتقادات على رُواتِه، وكِلا المدرستَيْن تَريان أنّ في رُواتِه مقالاً... والسؤال: هل هذا المقال يجعل من المقولة مقولةً باطلة؟.. باعتقادي، لا، لا يجعلها باطلةً، لأنّها لا تُخرِج هذا المسلم الذي لا يهتّم بأمور المسلمين من الملّة والدّين، ولكنها تجعله مسلماً غير كامل الإسلام وغير تامّ الإيمان... فهو مسلمٌ ضعيفٌ قلقٌ يحتاج إلى تثبيت...

وانطلاقاً من هنا، فإنّ هذا الحديث قاله النبيّ أو لم يقله، فهو قولٌ صحيح المعنى على هذا الوجه، وهنا تظهر أهمية قول السيّد رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنّ أَخْذَنا للسُّنة النبويّة نرجع فيه إلى أصول توثيق السّند وإلى قواعد فهم كلام العرب..

عملٌ يُفرح قلبه

وهنا، لا بدّ أن أُشير بأنّ المَجمَع العالمي للتقريب بين المذاهب الذي أتشرّف بعضوية مجلسه الأعلى وبعد كلِّ اجتماع لهذا المَجمَع كنت أتشرّف بزيارة السيّد رَحِمَهُ ٱللَّهُ لأخبره بما جرى في الاجتماع، لأنّ ظروف المرجعيّة وانشغالاته الكثيرة كانت تمنعه من حضور اجتماعات المَجمَع في طهران، فيُرسل نيابةً عنه نجله سماحة السّيد علي فضل الله. عندما أجتمعُ إليه يسأل عن التفاصيل وما دار في الاجتماعات واللقاءات ويسأل عن القرارات التي كانت تصدر عن المَجمَع..

وقد كان سماحته يؤكّد على مسألة مهمّة طالباً منّا تناولها ودراستها في المَجمع العالمي للتقريب بين المذاهب، وهي أنّ ٨٠٪ من الروايات بين السنّة والشيعة متّفقٌ عليها، والمُختلَف عليه من الروايات حوالي ٢٠٪.. وكم كان حزني كبيراً عندما لم أستطع أن أخبره أنّه وبعد صدور ٢٨ جزءاً من موسوعة أحاديث السنّة والشّيعة والتي أَشرف على إصدار هذه الموسوعة سماحة الشيخ محمد علي التسخيري، أنّ الأحاديث المتّفق عليها بين السنّة والشيعة تمثّل ما نسبته ٩٢٪ والمُختلف عليه ٨٪.. إذاً ٨٪ خارج التسنّن والتشيّع، فلماذا لا نعمل على الـ ٩٢٪ بدل أن نختلف ونتقاتل ويكفّر بعضنا بعضاً، ويبدّع بعضنا بعضاً.. فهذا عملٌ علميّ قام به علماء متخصّصون في الحديث والرّواية والسّند.. وهذه الموسوعة طُبعت وصدرت وهي بين أيدي البعض من الناس، ولكن للأسف فإنّها غير متوفّرة في الأسواق، كون المَجمَع العالمي للتقريب بين المذاهب مؤسسة حكوميّة تابعة للجمهورية الإسلاميّة في إيران وهو لا يبيع كتبه، وأنا أرجو من إخواني في المَجمَع أن يُنزِلوها إلى الأسواق ولو بسعرٍ رمزيٍّ..

شروط الوحدة

إذاً، قضيّة الاختلاف في الرواية نرجع فيها إلى أهل توثيق السّند وإلى طرق فهم الكلام العربيّ، وإنّ دليلنا في الاتّفاق والاختلاف هو القرآن والسنّة، وإنّنا مسلمون بحسب الأصل وإن اختلفنا في بعض التفاصيل، لكنْ هناك شروط كي ينجح عمل القواعد في هذا المجال، والسيّد رحمه الله حدّد شروط نجاح هذه القاعدة، ومن شروطها الأساسية أن تكون هناك قلوب مفتوحة على الله تعالى، حيث يُراجِع كلٌّ واحد نفسه، ليكون لديه إخلاصٌ للإسلام في حقيقة نفسه، وأن يعيش الموضوعيّة في التفكير، فلا يُقدِّم ما حقُّه التأخير، ولا يُؤخّر ما حقُّه التقديم.. من هنا، فإنّ القضيّة التي يثيرها السيد رحمه الله هي أنّ الموضوعيّة في التفكير تقتضي منّا أن

نقف مع الحقّ حيث كان ومن أين جاء، وأن نقف ضدّ الباطل حيثما كان ومن أين جاء، لذلك كان سيّدنا عليّ عليه السلام يقول: «إعرف الحقّ تعرف أهله» معنى ذلك أن تعرف الرجالَ بالحق، لا أن تعرف الحقَّ بالرجال.

إذاً، وعلى الرغم مما يضخّمه دعاةُ الفُرقة بين المسلمين السنّة والمسلمين الشيعة، فإن المساحة الكبيرة للاتفاق «لا تنتطح فيها عنزان»، و لو أنّنا كلّنا نخضع لِما تُمليه علينا قواعدُ الإسلام وأصولُه، وذلك استناداً إلى ما يسمّيه سماحة السيّد (رحمة الله عليه) التفكير الموضوعيّ، وليس التفكير الشخصيّ أو التفكير الذاتيّ، فإنّ ذلك يختصر لنا كثيراً من المسافات، ويحوّل المذهبية الطائفيّة والخلاف بين السنّة والشيعة من تراكمات تاريخية ضيّقة الطُّرق إلى سَعة فكريّة توسِّع للمسلمين حياتهم، وتُمكِّنهم من العيش الواحد والمشترك دون أن يكون بينهم تزمُّت طائفي يمنع هذا العيش.

فالسيد كان يذمُّ بشدّة التعصُّب الطائفي، ويقبل بكلِّ رحابة صدر التمذهُب والتعلُّم المذهبي، لأنّ التمذهب يحفظ وحدة الجماعة، وتعدُّد المذهبيات الخاضع للاجتهاد يمكّن الأمّة من أن تعيش في رحابة بحسب مرويّاتها وفهم علمائها وتقديرهم... أمّا أن تتحوّل المذهبية الفكرية إلى تعصّب طائفيّ، فهذا يهزم الأمّة ويجعل بأسها بينها شديداً، ويُحوِّل الخلاف الفكريّ إلى خلاف كفريّ، فإذا تحدّثتَ عن خلافٍ فكريّ فأنت تتحدّث عن فكر واتّساق واتّساع أُفق، وإذا تحدّثت عن خلاف كفريّ فأنت تتحدّث عن ضيق أُفق وعن فساد في الذوق وفساد في الفهم الإسلامي... وهنا يقول سماحته رحمه الله: إذا كان القرآن يقول للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وللمسلمين بعده: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤] فكيف لا يتّفق أهل القرآن على كلمة سواءٍ بينهم وبين بعضهم البعض؟ كيف لا يتّفقون على أنّ الإسلام هو دينهم؟ وأنّ اختلافهم في فهمه اختلافٌ محتملٌ مقبولٌ لا شيء فيه،

ما دام مستنداً إلى النظر في أصول العقيدة والشريعة من القرآن والسُّنّة. فالذي يتّفقون عليه كما يذهب إلى ذلك سماحته، أكثر بكثير ممّا يختلفون حوله، وإذا كنّا نختلف حول موضوع الإمامة والخلافة، فإنّ علينا أن نُمارِس هذا الخلاف بالأدب الإسلامي: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾[النساء: ٥٩].

إذاً، هذا هو المنهج، إذا تنازعنا في شيءٍ نردُّه إلى أصول الإسلام التي هي الكتاب والسُنّة... وقد قال سماحته هذا الكلام في وقت محنة هامّة مرّت بالأمّة العربيّة، قال معقّباً على ذلك: واعلموا أنّ التحدّي الذي يواجه المسلمين لن يفرِّق بين سنّيٍّ وشيعيّ، ولا متريّث ولا غير متريّث، ولا مُتزمّت ولا مُتساهل، إنّما سينال من الجميع ويتوجّه إلى الجميع.. وإن استطاع فريقٌ وحده أن يواجهه، فأهلاً وسهلاً، لكنّي زعيمٌ بأنّ فريقاً وحده لا يستطيع مواجهته، لذا، على الأمّة أن تُوحِّد صفوفها لتواجه هذا التحدّي، تحدّي الاستكبار العالمي، وتحدّي القوى الاستعمارية التي تريد أن تَفُتّ في عضُد الأمة، وتحدّي أعداء الأمّة الداخليّين الذين هم في الواقع عملاء استعماريّون.. بل قال سماحته وفي أكثر من مكان: إنّ الذين يعملون على تفريق الكلمة في هذه الأمّة، وعلى ترسيخ الفُرقة السُّنيّة - الشيعيّة على وجه الخصوص، ليسوا إلاّ عُملاء للمخابرات الأجنبيّة والاستكباريّة التي تأبى بكلّ ما وسعها سعيٌّ أن نعيش معاً أو نتعايش معاً، فالوحدة الإسلامية ممنوعة عندهم، والوحدة الوطنيّة بين المسلمين والمسيحيين ممنوعةٌ أيضاً عندهم..

الإسلام يَسَعُ الجميع

فنحن، أيها الأخوة والأخوات، إذا ربّينا أنفسنا على الحبّ الصادق وعلى الإخلاص الذي ذكره السيّد وعلى الرضا بما قدّره الله من فُرقة الناس ﴿وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]

والاختلاف بحسب الآية يعني الاختلاف في العقول والأفهام والقبول والرفض.. فإنّ استطعنا أن نكون من هؤلاء الذين يقبلون الاختلاف ويسلّمون به وينزلون عند حكمه، فإنّنا إن شاء الله مِنْ الذين قُبلوا من الرعيل الأوّل من أصحاب محمّد ﷺ وآل بيته الكرام..

وهناك نقطةٌ لا بدّ من ذكرها وهي مدعاةٌ للأسف، فنحن عندما نحاول أن نقرّب بين السُّنّة والشيعة، فبعضٌ من الفريقين من السُّنة أو الشيعة يقول: يكفّروننا ويُنكرون علينا إسلامنا في مساجدهم وعلى منابرهم وهؤلاء من العلماء.. أنا أقول: هؤلاء ليسوا من العلماء، فلماذا نبقى طوال عمرنا أسرى الرُّعاع وأهل الرعونة والجهالة، وإذا لم يتقدّم العلماء الحقيقيون وأهلُ الثقافة وأهلُ العلم لكي يكونوا، كما بدأت حديثي، هم قادة الوحدة، وأن يكون كلٌّ منهم قائداً في منطقته وعمله وفي بيته.. متى نصبح قادرين على إزالة الشحناء والبغضاء التي يراها السيّد (رحمة الله عليه) من آثار التخلُّف الشنيع، حيث كان يقول، إنّ المسلمين عاشوا عصوراً من التخلُّف الشنيع، حيث جاءتهم هذه العصور من أضيق الطرق.. حسناً، هل سنبقى بأضيق الطرق لغاية أن نموت؟. نحن نريد أن نخرج من ضيق هذه الطرق إلى فسحة طريق الحقّ الذي هو طريق الاتفاق بين المسلمين كلّهم على أصول دينهم، وعلى سَعَة الاختلاف، وسَعة فكر هذا الدّين، وعلى سَعَة عباءة هذا الدّين التي تَسَعُ كلَّ من يقول: لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله..

وأذكر أنّ أحدهم قال لي مرّة مستنكراً: ما شاء الله، وتَسَعُ هذه العباءة الأقباط واليهود أيضاً؟ قلت له: فعلاً، هذه العباءة الإسلامية تَسَعُ الجميع، لأنّ علماءنا يقولون: الأمة، أمّتان، أمّة الاستجابة وأمة الدعوة.. أمّة الدعوة هي من أمّتنا، هؤلاء الذين سنعيش بينهم وندعو إلى الإسلام في أوساطهم، ونحرّك كلمة (لا إله إلا الله) بمفاهيمها العملية في واقعهم، وإلاّ لا نكون قد أدّينا واجب خلافة الأنبياء كَوْن

«العلماء ورثة الانبياء»، ولذلك عباءة الإسلام تَسَعُ الخَلْقَ كافّةً، مؤمنهم وكافرهم، مَن استجاب منهم ومَن لا يزال في نفسه رَيبٌ وتردّدٌ.. وواجب العلماء أن يتقرّبوا إلى هؤلاء وأولئك ليجذبوهم إلى أمّة الاستجابة، بدلَ أن يبقوا في أُمّة الدعوة..

مشكلتنا

والسؤال: ما المشكلة التي تَحُول بيننا وبين ذلك كلّه؟ يلخّص سماحة السيّد محمد حسين فضل الله الجواب بقوله: إنّ المشكلة الحقيقيّة هي أنّ الأجهزة الاستخباراتيّة العالميّة والإقليميّة والمحليّة تعمل على النفاذ إلى الواقع الإسلاميّ من خلال الثغرات التاريخيّة والمشاكل الحاضرة لكي تلعب على حفظ التخلُّف الروحيّ والفكريّ الذي ينبغي أن نخرج منه لنعيش الإسلام في رحابته وسعة أُفقه وسماحته..

وفي ختام لقائي بكم، أيّها الأخوة والأخوات أسأل الله تبارك وتعالى أن يبارك لسماحة السيد محمد حسين فضل الله في عمله من أجل الوحدة الإسلاميّة ولدعوته إليها وفي تشديده على ضرورتها، وأسأله أن يجعلها في خَلَفِه في هذا الباب وأن يُثبّت أقدامنا على دعوة التوحيد بالله سبحانه وتعالى ودعوة الوحدة بين الأمّة الإسلامية بأقسامها كلِّها، وأُصلّي وأسلّم تسليماً كثيراً على رسولنا محمّد وعلى آله وصحبه، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



السيّد فضل اللّه: النموذج في ساحات المقاومة و فلسطين

المفكّر والباحث الأستاذ منير شفيق



محاضرة أُلقيت في المركز الإسلامي الثقافي

مجمع مسجد الإمامين الحسنين (ع)

بتاريخ ٥/١١/٢٠١٠

الفقيه النموذج

أنا ممّن أحبّوا السيد رحمه الله وما زال حبّه يحتلّ قلبي. وهذا الحبّ لا ينبع فقط من اهتمامٍ بشخصه وبعلمه، ولكن أيضاً من اهتمام برؤيته الثاقبة الى أهمّ القضايا التي تهمّ أمّتنا.

كنت أرى فيه الفقيه النموذج في هذا العصر، ليس فقط من ناحية العِلم الفقهي، وعِلم الدين، لأنّ في هذا الكثير ممّن لهم باعٌ عريضٌ..إنّني أرى أنّ الفقيه الذي يصل مرتبة الاجتهاد، واسمحوا لي(رأيٌ شخصيٌّ على كلّ حال)، لا بدّ أن يكون عالِماً بالقدر نفسِه بالقضايا الدولية وبمعادلات موازين القوى في عصرِنا الراهن وبأهمّ القضايا السياسية التي تهمّ الأمة. فنحن بالحقيقة بحاجةٍ إلى الفقيه الذي لا ينشغل فقط بفقه الآحاد، وإنّما يُمسِك بفقه الأمّة ككلّ، وبقضايا الأمّة ككلّ.

و هذا هو أهمّ ما تميّز به السيّد (رضوان الله عليه) فإنَّه في قراءته لموازين القوى الدولية وللقوى المسيطرة على العالم رأى أنّ أميركا - وهو ما يُشاطره الإمام الخميني (رضي الله عنه) الرؤية نفسها - هي الشيطان الأكبر، وهي من يجب أن يُواجَه في الصّراع والنّضال، وأن لا يأخذنا بالنسبة إلى مواقفها أيّ تردّدٍ أو أيّة أوهام.

الكثيرون سقطوا في دروب الوهم و التردّد، بعضهم ظنّ أنّ علينا أن نكون متساهلين، وأن نكون منفتحين مع الدول الكبرى وفي المقدّمة أميركا. ولكنّ السيد كان ثابت الموقف دائماً، فحيثما كانت أميركا كُنْتَ ترى السيد في الموقف

المضادّ. يقف إلى جانب الحقّ وإلى جانب العدالة، لأنّ أميركا كانت دائماً إلى جانب التخريب، وإلى جانب التآمر على الأمّة، بل على كلِّ الشعوب المستضعَفة.

هذه رؤية ثاقبة أراها ضرورةً لأن تكون نبراساً لكلّ من يتناول قضايا الفقه أن يفهمَ من هو العدوّ في هذا العالم وفي المقدّمة يأتي العدو الصهيوني المتمثّل بالكيان الصهيوني والمتمثّل بالقوى الصهيونية العالمية. هذا الالتقاء الجهنّمي بين أميركا وبين الصهيونية العالمية يُمثّل أخطر ما يُواجه عالمنا اليوم، ليس على المستوى الفلسطينيّ والعربيّ والإسلاميّ بعامّة، وإنّما على المستوى العالمي. وقد يكون ذلك الالتقاء في غلوّه و حمقه سبباً من أسباب انهيار الأمبراطوريّة الأميركيّة أو معجّلاً بانهيارها.

الدليل الفلسطيني

على أيّة حال يهمّني هنا أن أقول إنَّ ما خلّفه لنا السيّد من مواقف ضدّ أميركا، يجب أن يكون دليلاً أوّلاً لكبار الفقهاء وبصورة خاصّة فقهاء السُّنّة وكثيرٍ من فقهاء الشّيعة أيضاً.

يجب أن ندرك خصوصاً مع مجيء أوباما، أنَّ أوباما ليس كون اسمه أوباما حسين أو باراك حسين أنّ شيئاً تغيّر من واقع الحال في الموقف الأميركي، خصوصاً وأنتم ترَون الآن كيف أنّ أوباما يفعل كلّ ما فعله جورج بوش، بل وزاد عليه أشواطاً. تصوّروا أنَّ هذا الأوباما الذي رُحّب به من بعض الفقهاء وأعلنوا تفاؤلهم به، هذا الأوباما قال في برقيّته التي أرسلها إلى نتنياهو وإلى بيريز في ما يسمّونه زُوراً بذكرى الاستقلال الـ ٦٢ لهذا العام. قال لهم إنّ فلسطين التاريخيّة هي الوطن التاريخيّ للشعب اليهودي، قال قولاً لم تجرؤ الصهيونية ومِنْ قَبْلُ غُلاتُها أن تقولَ بمثله، لأنّ فيه تدميراً خطيراً للتاريخ من جهة، ولأنّ فيه هدراً لأصل الحقّ

في القضيّة الفلسطينيّة. من هنا أنا أُريد أن أُطِلّ وأنصح بأن يُطَلّ على كلّ ما كتبه وقاله السيّد في الموضوع الفلسطينيّ، وكيف كان يرى أنّ فلسطين لا حلّ لها إلا بالتّحرير الكامل ولا طريق إلى ذلك التّحرير غير طريق المقاومة. لذلك هاتان النظرتان تُمسكان برأيي بلُباب ما يجب أن نتمسّك به في كلّ سياسةٍ نقوم بها أو نتبنّاها على المستوى الفلسطينيّ أو اللّبنانيّ أو العربيّ أو الإسلاميّ.

بالنسبة إلى السيّد كانت قضيّة فلسطين قضيّة مركزيّة، فعندما كنّا نتحدّث معه أو كنّا نتعلّم منه أو كنّا نستمع إليه في أيّة قضية، لم أشعر يوماً أنّني فلسطينيٌّ، وأنّه لبنانيٌّ، أو أشعر بأيّ شيءٍ من الفروق، وإنّما كنت أشعر أنَّ قضيّة فلسطين هي قضيّته بشكلٍ يزيد عمّا هي قضيّتي أو قضيّة أيّ إنسان يهتمّ بالقضيّة الفلسطينيّة. ولذلك كان واقفاً دائماً إلى جانب فلسطين وإلى جانب شعبها وإلى جانب المقاومة، وكان يرفض أيّ انحراف يحدث في الساحة الفلسطينيّة، لأنّ أبناء فلسطين إذا كانوا يعتبرون أنَّ هذه القضية هم أَوْلى بأن يتصدّوا لها، فعليهم أن لا ينحرفوا عنها وأن يتمسّكوا بثوابتها وأن يُمسكوا بلُباب هذه الثوابت وهو ما كان يُركّز عليه السيّد.

الوحدة مبدأه

وأنا أعتبر أنّه ترك لنا ميراثاً غنيّاً جداً سواءً كان على المستوى الفقهيّ أو على المستوى الفكريّ أو الثقافيّ أو السياسيّ في هذه القضية. بعد ذلك تأتي قضايا كبرى تصدّى لها السيد، وأعتبر أنها ما زالت حيّة إلى اليوم، أكثر ممّا كانت في الزمن الذي تناول فيه تلك القضايا، لأنّها كانت في ذلك الزمن إرهاصات، وهي قضيّة الوحدة الإسلامية، الوحدة بين السنّة والشيعة. في الوقت الذي تحدّث السيّد عن هذه القضيّة بكلّ تلك القوة، وبكلّ ذلك الوضوح وبالشفافية العالية، حيث كان الجميع يشعر بالصدق ويشعر بالاستقامة عندما يتناول هذه القضيّة وأن لا عِوَجَ في الكلام وهو يتحدّث عنها، و المتابع يُدرك كم كان نظرُه ثاقباً، حين ركّز على

هذه القضيّة. وفي هذه الأيام ـ أكثر من تلك الأيام ـ أصبحت الفتنة بين السنّة والشّيعة محوراً في السياسات الأميركيّة والصهيونيّة، ومحوراً بالنسبة إلى كلّ العملاء والمتهافتين حول تلك السياسات. وأنا أعتقد أنّه إذا كان هنالك من خطر يجب أن نتنبّه إليه، ولا نسمح بأن يخترق صفوفنا، هو أن تقع الفتنة بين السُّنّة والشّيعة، سواء كانت في لبنان أو في العراق أو في باكستان أو في أفغانستان وعلى أيّ مستوى. فقضيّة الوحدة كما تعامَلَ معها السيّد يجب أن لا تكون قضيّة مُجاملة ولا قضيّة سياسيّة تُعامَل بخفّة، أو كما يُقال رفعاً للعتَب، وإنّما يجب أن تدخل في صميم المبدأ، وقد تَعامَل معها (رض) بروحٍ مبدئيّة كونها ليست تكتيكاً أو شيئاً عابراً.

وحدة الأمّة الإسلاميّة مسألة قرآنيّة لا يُمكن أن يتلاعب بها أحدٌ إلا الذين ينظرون إلى الأشياء نظرةً قاصرة. صحيحٌ أنّ هناك خلافات في بعض القضايا، قد تكون مهمّة، وقد لا تكون إلا بالفروع، ولكن تظلّ قضيّة الوحدة فوق كلّ شيء. لأنّ الدخول في الانقسام هنا، والدخول في الفتنة هناك، برأيي هو القاتل و المُجهِض لكلّ ما نحقّقه من مكتسبات بلا جِدال، فالذي يدخل في الفتنة يدخل ضدّ نفسه، وضدّ مذهبه، وضدّ موقفه السياسيّ، قبل أن يدخل ضدّ الآخر الذي يظنّ أنّه يواجهه.

وفاء الأمّة

بهذه الروح قرأت السيد (رضوان الله عليه) وكيف تعامَل مع هذه القضية حتى عندما شُيّع إلى مثواه الأخير أسكنه الله فسيح جنانه. في الحقيقة رأيت الجمهور الذي شارك في هذا التشييع، وكلُهم شاركوا عن بصدقٍ وبمحبّة، و بنوعٍ من شعور بالوفاء له. كانوا من جميع الأطياف من السنّة ومن النصارى ومن الشّيعة ومن الدروز ومن كلّ فئات الشعب، و من جميع الأطياف الحزبية والسياسية.

عندما كان يُذكَر السيد ما كانوا يذكرونه إلاّ بالخير وبالاحترام وبالتّقدير، بغضّ النظر عن مدى اطّلاعهم على كلّ أعماله، ولكن ما كانوا يعرفونه عنه وما بدا

لهم منه كان كافياً لأن يُخلصوا في السير وراءه وهو سائرٌ إلى مثواه الأخير. هذا يدّل دلالةً واضحة على أنّ هذا الفقيه العالِم المجدِّد أمسك بلُباب القضايا التي تهمّ الأمّة والتي لها علاقة بحياة الأمّة ومستقبلها.

راعي المقاومة و سندها

الحقيقة أيضاً عندما نسمع الحملات التي تُواجَه بها المقاومة سواء كانت المقاومة في لبنان أو في فلسطين أو المقاومة في العراق أو المقاومة في أفغانستان، كنّا نرى السيّد دائماً مع المقاومة. وبصورة خاصّة بالنسبة للقضيّة الفلسطينيّة والتي اعتبرَها القضية المركزية، وما تحقَّق من إنجازات وما حقّقته هذه المقاومة في لبنان كان للسيد فيه يدٌ طولى بلا شكّ، و خصوصاً في مراحلها الأولى عندما كانت ما تزال المقاومة بحاجة إلى سندٍ قوي يسنُدها ويجعلها تصبح قوّة كبيرة وقوّة تلتفّ حولها الجماهير. أنتم تعلمون كم كانت هنالك من حملات ضدّ المقاومة الفلسطينية، ولكنّ السيّد لم يُخطئ مرّةً واحدةً في الانجرار وراء أيّ فتنة ضدّ المقاومة الفلسطينية. السيّد لم يُخطئ مرّةً واحدة في أن لا يرى أنّ مستقبل الكفاح ضدّ الكيان الصهيونيّ يجب أن يكون المقاومة، وعندما خرجت المقاومة من لبنان، كان السيّد على رأس العمل الذي يدفع لبناء مقاومة جديدة في لبنان تسير على خُطى كلّ تحرير فلسطين وتستند إلى مبدئيّة الإسلام وإلى قِيَم الإسلام وإلى مفاهيم الإسلام.

السّلاح يخضع للقيم

في الحقيقة كانت المقاومة دائماً سواءً كانت في فلسطين أو في لبنان أو في أيّ مكان تحتاج إلى جانب سندها الشرعي، وإلى جانب دعمها و مُناصرتها والذَّوْدِ عنها، كانت أيضاً بحاجة إلى قِيم، وإلى ترسيخ القِيم.

أنا ليَ تجربة متواضعة بالنسبة للمقاومة الفلسطينيّة.وأرى أنّ حَمْلَ السلاح على عظمته وعلى أهميّته إلا أنّه إذا لم يُحصَّن بالقيم بالنسبة إلى حامِل السلاح فهو يدفعُه إلى الغرور والشعور بالقوّة، ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى﴾ [العلق: ٦]. وبالتالي تصبح قضيةُ التربية والاستقامة، قضيةُ القِيَم الإسلامية العُليا مسألةً أساسية بالنسبة لحامِل السلاح، حتى يكون قادراً على أن يُشرِّف سلاحه، و يُشرِّف القضيّة التي يُناضِل من أجلها، فلا يُصبح عِبئاً عليها. نحن في الثورة الفلسطينية مرَرنا بأيام كاد الإنسان منّا يخجل أن يكون من المقاومة الفلسطينيّة بسبب انحرافات حَملَها بعضُ حاملي السلاح، والذين كان يجب أن يُردَعوا وأن يجدوا من يُقوِّم مسيرهُم، ولا يسمح لهم أن يطغوا على الشارع وبصورة خاصّة في الجنوب اللبنانيّ.

من هنا أرى أنَّ نظرة السيّد الثاقبة في أن يُقرَنَ دعمُ المقاومة ودعمُ حَمْلِ السِّلاح بالقيم الإسلامية العُليا لأنّها مسألةٌ كبيرةٌ ومهمّةٌ، ويجب أن يُمسِك بها كلّ حاملِ سلاحٍ، أمس واليوم وغداً ومن سيأتي بَعْدَنا، لأنّ أُمّتنا ستظلّ تحت السلاح إلى أمدٍ طويل، لأنّ أعداء هذه الأمّة لن يتركوها تتحرَّر بسرعة، فالمعركة طويلة، وطويلة جداً. صحيحٌ أنّنا الآن نُحقّق إنجازات ونُحقِّق انتصارات، ونعيش في زمن أفضل من الأزمان السابقة في ما يتعلّق بموقع المقاومة، ولكن ما زالت معركتُنا طويلة، وما زال أعداؤنا يكيدون كيداً لهذه الأمّة.

والنقطة التي أُريد أن أتحدّث عنها، هي أنّني شخصيّاً، أشعر الآن بحاجتنا إلى السيّد بعد غيابه، بصورةٍ أكثرَ ممّا كان في حياته، لأنَّ المرحلة أصبحت أكثر تعقيداً وأكثر صعوبة وأصبحت المخاطر أكبر من ذي قبل، بل أصبحنا في وضع خطيرٍ جداً، وأصبحت أسنانُ و أنيابُ الأعداء تقطرُ بالغضب و الدّم و الحقد علينا و لذا لا تظنّوا أنّ الانتصار الكبير الذي حقّقته المقاومة في لبنان، والتي هزَّت هيبة الجيش الصهيونيّ، وجعلته يخرج مهزوماً من أرض لبنان أنَّ هذا يمرّ مرور الكرام

بالنسبة إليهم، ولا تظنّوا أنّ إخوتنا في المقاومة في قطاع غزّة، عندما جعلوا من غزّة حِصناً منيعاً، سيسمح الصهاينة لهم بالانتصارات مرّة أخرى. طبعاً هم سيعملون، ولكن أرجو من الله أن ننتصر عليهم مرّةً أخرى.

الاستعداد للمواجهة

أمام هذا الواقع علينا أن لا نستخفَّ بما يكيدون، يجب أن نستعدَّ أكثر، وأن نلتفّ حول المقاومة أكثر، وأن لا نطمئنّ ونضع أيدينا في الماء البارد، ونقول لدينا مقاومة في الجنوب اللبنانيّ فهي ستقوم بالمَهمّة وكفى الله المؤمنين القتال. لا.. الآن المقاومة بحاجة إلى الالتفاف حولها وإلى تأييدها أكثر من أيّ يوم مضى، هي بحاجةٍ أن تُردَف بالقوّة، وبالشباب وبالشابات وبكلّ التأييد الشعبي أكثر من أيّ يوم مضى، في لبنان وفي فلسطين بصورة خاصة. فالعدو ما زال يستعدّ للحرب، فنحن إذا كنّا نكره الحرب، ولا نسعى لها لكنّنا يجب أن لا نخاف من الحرب ويجب أن نكون مستعدّين لتقديم التضحيات. أنتم تعلمون أنَّ حرب تموز ٢٠٠٦ التي واجهتها المقاومة المنتصِرة في لبنان لم تُقدِّم من التضحيات - لأنها انتصرت ولأنها قاومت بشراسة - قَدْر ما قُدِّم في لبنان عام ٨٢. في عام ٨٢ عندما تمّ اجتياح لبنان، ولأنّ هناك من هُزِم أمام العدو الصهيوني ولم يُقاتِل كما يجب، كان من قُتِل بحسب إحصاءات الدولة اللّبنانية يزيد على ١٦ ألف شهيد، وربّما وصل إلى ١٩ ألف شهيد. صبرا وشاتيلا وحدهما قدّما في يوم واحد ٢٧٠٠ شهيد، يعني أكثر ممّا قُدِّم في لبنان وفي قطاع غزّة بدفعةٍ واحدة.

في الحقيقة نحن إذا كنّا أقوياء وكنّا مستعدّين للقتال نُقلِّل حتى من عدد الشهداء والجرحى. صحيحٌ أنّ الانتصار يستحقّ الكثير من أجل أن يتحقّق، ولكن تأكّدوا تماماً أنّ ما قدمه الجيش المصريُّ والسوريُّ في حرب ٧٣ في حرب تشرين، أقلّ بكثير من الخسائر التي تكبّدوها بالأرواح وبالجرحى في عام ٦٧. لذلك صحيح

أنّ الحرب فيها دماءٌ ومخاطرٌ، ولكنّ الهزيمة والانكسار تزيدان من منسوب الدماء ومن منسوب المخاطر. ولا يظنّنّ أحدٌ أنّه يستطيع أن يضع رأسه في الرمال أمام هذا العدو. انظروا الآن ماذا يجري في الضفّة الغربيّة، هنالك محاولات للتفاهم مع العدو الصهيونيّ ولتشكيل نوع من الاتّفاق الأمنيّ لمقاومة المقاومة من خلال الفلسطينيّين، من خلال الأجهزة الأمنية، ومع ذلك يسقط الآن في الضفة الغربيّة من الشهداء والأسرى، أكثر ممّا يسقط في غزّة، وأكثر ممّا يسقط هنا في لبنان. فالذي يظنّ أنَّ الابتعاد عن المقاومة سوف يُريح البلاد وسوف يُخفِّف عنها الويلات والأطماع هو واهم. الطريق الوحيد للتّخفيف من التضحيات والتّخفيف من الويلات والتّخفيف من أطماع العدو هو الصمود والاستعداد للقتال بشراسة وبقوّة وبإيمان لا يتزعزع. هذا وحده الذي يحمي البلاد ويحقّق الاستقرار ويُخفِّف من الخسائر، سواء وقعت الحرب أو لم تقع الحرب.

كي يبقى معنا

آخر كلماتي أقولها: رحمة الله على السيّد، وهذا قضاء الله وقدره ولا يستطيع أحد أن يتجنَّب هذا المصير. فرسول الله ﷺ بالنهاية توفّاه الله، ولكنّ الشيء الذي يبقى حيّاً هو الأثر الذي يتركه، هو السُّمعة التي كان عليها، والنموذج الذي كان عليه، هذا النموذج الذي أصبح غائباً إلا في عالم المسلمين. نحن الآن في عصرٍ إذا ذهبتم إلى الغرب أو إلى الشرق لم يعد هنالك من قادة لهم تلك الشعبية ولهم ذلك الإشعاع، ولهم ذلك النموذج لا في الغرب ولا في الهند ولا روسيا ولا الصّين، انتهى بالنسبة إليهم زمن القادة مثل غاندي ولينين أو مثل لنكولن إلخ. الآن أصبح القادة والنماذج كالتي نشاهدها، كلّها من نوع رديء وهي نوع من الموظّفين، أكثر منهم من النُّخَب. نحن الآن لدينا نماذج، والسيد يُشكّل نموذجاً يندُر أن تجد له مثيلاً في عالم الغرب وعالم الرجال، ولا يوجد في هذا العصر بالتأكيد نماذج من

هذا النمط. هذه النماذج غير موجودة الآن إلا في الأمّة العربية والإسلامية. هذه النماذج لا يُخرِّجها إلا الإسلام، وأنا أظنّ أنّنا إذا أردنا أن يبقى السيّد معنا يجب أن نقتديَ ونتعلّم منه ونحفظ ثوابته وما كان عليه لا سيّما في القضايا الكبرى. هذه القضايا الكبرى التي ما زالت تُشغِلنا وما زالت حيّة اليوم أكثر من أمس. والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته.



سيادة العقل في مرجعيّة

السيّد محمّد حسين فضل اللّٰه

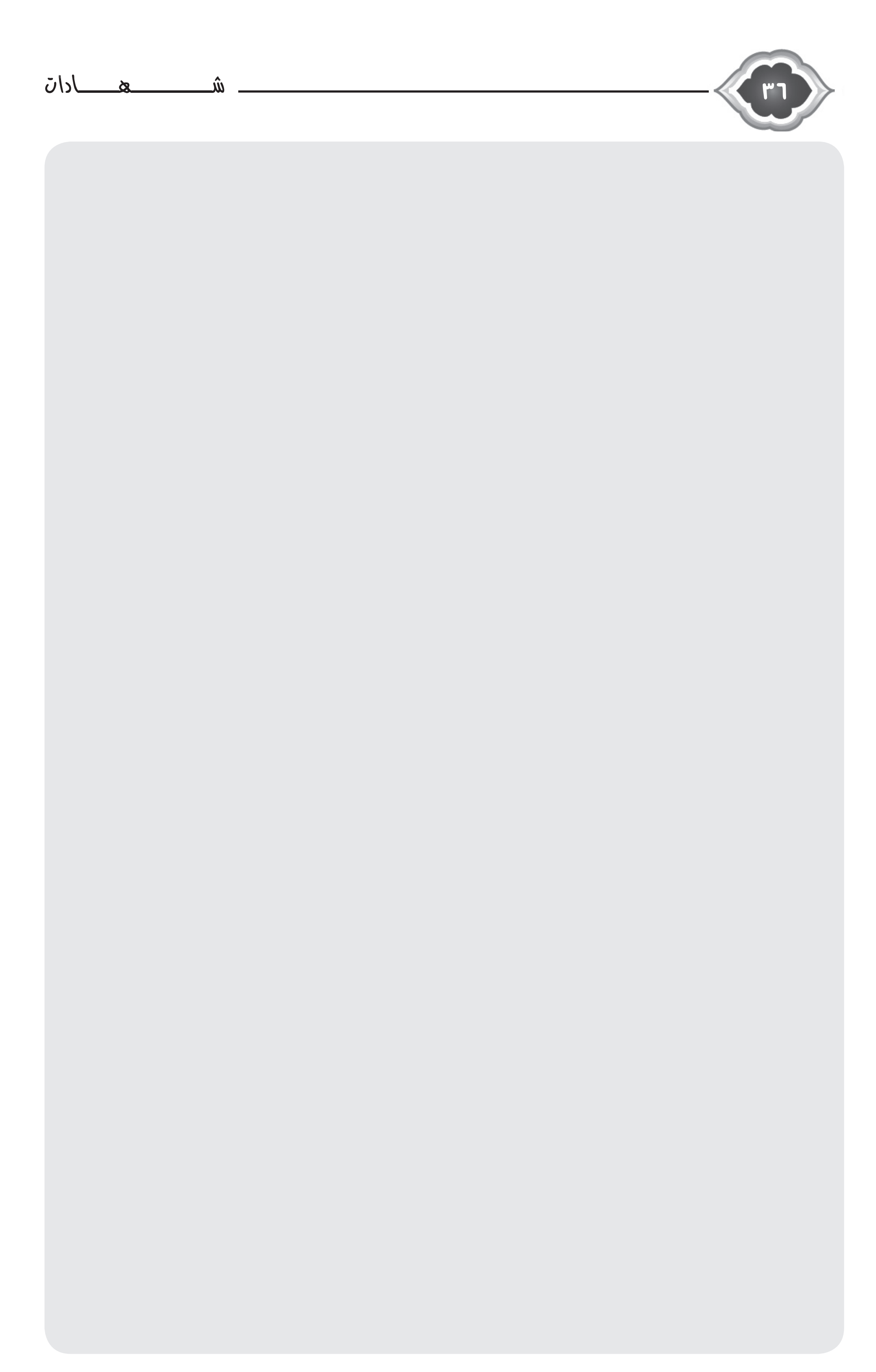
العميد الركن د. أمين حطيط



محاضرة أُلقيت في المركز الإسلامي الثقافي

مجمع مسجد الإمامين الحسنين (ع)

بتاريخ ٢٨ / ١ / ٢٠١١



المزايا الجاذبة

في يومٍ من شهر آب من العام ١٩٨٣، اقترح عليَّ صديقٌ بأن أستشير السيّد محمد حسين فضل الله قبل أن أنفّذ قرار استقالتي من الجيش اللبناني، القرار الذي اتّخذته بعد أن تحوّل هذا الجيش في عهد أمين الجميّل إلى جيشٍ قمعيٍّ ضدّ الوطنيّين، جيش يعمل في خدمة نظام اعتمد أميركا وصيّاً عليه . جئت إلى السيّد فأنصت إليّ حتى نهاية كلامي – تبيّن لي لاحقاً أنّه يتقن فنّ الإصغاء كما يتقن احترام الآخر – و بعدها سألني: هل تستطيع بوجودك في الداخل أن تمنع ضرراً أو تخفّف منه؟ قلت: نعم، فتابع: و دون خطر عليك؟ قلت: يمكن بعضه و لكن أحتمل، فقال إذن أرى أنّ المصلحة بأن تستمرّ لتدفع بعض الضَّرر و ليكُن ذلك في سبيل الله . و استمرّيت في الجيش بعدها ٢١ عاماً لم أنقطع عنه خلالها أبداً، بل كان هناك اتصالٌ تصاعديٌّ في حميميّته و يشتدّ في عمقه الفكريّ و الفقهيّ و الفلسفيّ، إلى أن لمستُ إمكانَ معرفة مَنْ هو السيّد، و منحني فرصة أن أكون هنا متشرّفاً بالحديث عنه في جانبٍ من الجوانب التي عشقته فيها، و كم هي المزايا التي تدفعك إلى ذلك و كلّ ما في شخصيّة السيد يجذبك إليه ...

الموقف المفتاح

إذن الموقف المفتاح في علاقتي بالسيّد محمد حسين فضل الله هو مصلحة الأمّة، تلك المصلحة التي رأى السيد أنّها تعلو و تتقدّم مصلحة الفرد دون أن تلغيها، و قدّم فهماً متطوّراً للمصالح في الاسلام، حيث إنّ الذين قالوا قبله من

الفقهاء اعتنوا بالمصالح الخمس، و هو اعتنى إلى الخمس بثلاث أُخَر: مصلحة الأمّة في الوحدة و في القوّة و في الحرية، مصالح قاده إليها بحث عقليّ متماسك منطلقٌ من ثوابت الدّين . و الذي ميّز السيد في هذا المضمار هو مدى إعماله للعقل في اعتماد المصالح .

العقل و الروح

و هنا سأحاول أن أعرض من شخصيّة السيد نظرته للعقل و موقعه في مسيرته و النتائج التي ترتّبت في السلوك العملي فضلاً عن الفقهيّ في هذا الأمر. فالسيّد العالِم، آمن بأنّ المعرفة تكون بحسٍّ أو وحيٍ أو عقلٍ، و الحسّ مشترك بين الناس لكنّ مجاله محدود، و الوحي اختصّ به مَنْ اختارهم الله ليكونوا رُسلاً أو أنبياء وهم خُتِموا بمحمّد صلّى الله عليه و آله، و يبقى من وسائل المعرفة إحدى الحجّتين اللّتين أخذهما الله على الناس و هو العقل، كما حسم الأمر هنا إمامنا موسى الكاظم عليه السلام حيث قال: «**إنّ لله على الناس حجّتين: حجّة ظاهرة وحجّة باطنة، فأمّا الظّاهرةُ فالرُّسل والأنبياءُ والأئمّة، وأمّا الباطنةُ فالعقول**» لقد أدرك السيّد قيمة العقل و أهميّته، متوقّفاً عند الحديث القدسيّ الذي كرّس للعقل تلك المرتبة المتقدّمة حيث ذكر بأنّ الله قال للعقل يوم خلقه: «**أقبِل فأقبَل، و أمره بأن أدبِر فأدبَر فقال: و عزّتي و جلالي لم أخلق خلقاً أعزّ عليّ منك، و عزّتي و جلالي لأضعنّك في أحبّ خلقي إليّ، بك أُثيب و بك أعاقب**» ..

نعم أدرك السيد بأنّ العقل أُعطي للإنسان، فتميّز به عن كلّ الكائنات، و كان الأمانةَ التي لم يقبلها إلا الإنسان . فحَفِظ السيّد الأمانة و أدرك أنّ الحِفاظ الحقّ عليها لا يكون إلا باستعمالها في ما أُعدّت له باعتبارها أداة كشفِ الحقّ الذي جاء به الرسول بوحيٍ يُوحى إليه في كتاب لا يأتيه الباطل، و في سُنّة رسولٍ لا ينطق عن الهوى، و أرسى السّيد قاعدة ذهبية «العمل بسلطان العقل تحت سقف النصّ من

كتابٍ و سُنّة». و كان لهذا الموقف مفاعيلُ و آثارٌ تجلّت في أكثر من ساحٍ واتجاه، وارتقى السيّد بذلك إلى سدّة الاجتهاد المطلق، و كان له بالعقل المنفتِحِ المتنوِّر مواقفُ و فتاوى جعلت من موقعه المرجعيّ مقاماً ذا تميّزٍ معتبرٍ . و إذا كان المجال يضيق هنا عن إحصاء مواقفه فقد يكون في عرض بعضها شيءٌ من فائدة .

١ - شجاعة العقل و مواجهة الخرافة

إنّ تمسّك السيّد بمرتبة العقل و أهميّته، قاده فوراً إلى احترام عقول الناس لأنّه أيقن أنّ في ذلك احتراماً لإنسانيّة الإنسان، أوَ ليس الإنسان هو الكائن الذي كرّمه الله و ميّزه عن سواه بالعقل ؟ فالعقل هو خصوصيّة الإنسان التي لا يشاركه فيها أحد من الكائنات، و إنّ تجاوزَ العقل أو إهمالَه أو تهميشَه، يعني و ببساطة تجاوزَ تلك الإنسانية و تهميشها . لقد نظر السيّد إلى الإنسان و خاطب عقله، و احترم عقله و قدّر له عقله فلم يستخفّ به، و قد قرأ في القرآن أنّ فرعون استخفّ قومَه فأطاعوه من غير تبصّر و تعقُّل. لذا لم يقدّم السيد إلى الناس إلا ما تقبله العقول، و يمكن أن تُقدّم عليه البيّنة العقليّة المدعّمة بالسند النصيّ في عملية اجتهادية مُحكَمة القواعد الأصوليّة . لم يقدّم ما تطلبه الغرائز و ما يجذب أصحاب الشهوات، بل انطلق متمثّلاً القول بأن « إذا أردت لكلامك البقاء و الأثر فأَرْسِهِ على صخر، و صخر الكلام علم أو منطق». وهذا الأمر جعله يرفض كلّ ما حاول البعض إلصاقه بالشريعة و المسيرة من خرافات أو تصوّرات أو من تفسيرات لا تبرّرها حجّةٌ عقلية، و لا ترتكز على قاعدة نصيّة، فالدّين كما رآه فإنّ إحكامه قويٌّ بذاته لأنّه من الخالق، صلبٌ متينٌ في قواعده، ليس بحاجةٍ إلى من يتبرّع له بخرافة تُعلي شأنه، ففيه من القوّة ما يكفيه ليكون ديناً قويماً، و الله جعله كذلك، وديناً محفوظاً، و الله أخذ على نفسه حِفْظَهُ، و الخرافة لا تعزّز الدين بل تُبعِد عنه أصحاب العقول و تسفّهه في ذهن من امتلك الفكر والعقل السليم. فالخرافة

تؤذي في حين يعتقد مُطلقُها بأنّه يخدم الدين . كان السيّد شجاعا ثابتا و مجاهراً بالقول:لا لكلّ الخرافات و لا لكلّ الأوهام، فما جاءه من خبر كان يعرضه على كتاب اللّه كما أمرنا الإمام الصادق عليه السلام بأن نفعل، و يُحكّم عقله في المقارنة، فإنّ حكم العقل بتوافقه مع الكتاب أخذ به، و إلا حُكم بأنّه مدسوس و مُختلَق .

٢- عقلنة المسار و مأسسة العمل

إعمال العقل انطلاقاً من النص جعل موقف السيد ثابتاً و متماسكاً و باستمرار. فبعد أن قدّم السيّد للنّاس ما تقبله عقولهم و تنجذب بعدها إليه أفئدتُهم لِما عَرفوا من الحقّ فيتّبعون مقولته، جعل الفكرة هي التي تقود، و النظرية السّليمة هي التي تسود، والمؤسّسة هي التي تحتضن الفكرة و النظريّة، و هي بالتالي التي تتابع المسيرة . و لا يكون الشخص بما هو شخص طبيعيّ هو القائد، بل مؤسّسته و فكره هما من يعملان. و كان لهذا الأمر الأثر الكبير على مسار السيّد بعد رحيله جسداً، حيث استمرّ في النّاس بالفكر و الفقه الذي أرساه، و لو كان الشخص فيه هو المتَّبَع لانفضّ النّاس عنه بالرحيل، و لكن بما أنّ الحقّ الذي أظهره السيّد كان نتاجا للبحث العقليّ و الاجتهاد هو المتّبَع انطلاقاً من المصادر، و الحقّ لا يموت فإنّ المسيرة استمرّت و تستمرّ و إن كان في الأمر ما يكبحها، لأنّ وجود من يملأ الفراغ في القيادة العقليّة الفكريّة التي أوجدها السيّد في حياته ليس أمراً سهلاً بالمنظور من الواقع، و لكن ليس الأمر ميؤوساً منه خاصّة و أنّ للسيّد مدرسة في ذلك و له المريدون و التلاميذ، و لعلّ اللّه يُخرِج منهم من يتابع ما بدأه السيد و المتابعة أسهل، لأنّ فتح الطريق ابتداءً كان هو الصعب و السيد أنجزه .

٣ - الدينُ يسرٌ لا عسر

قاده العقل إلى تسهيل اندماج المسلم في بيئته المختلطة ممّا يسيّر له حياته

مع التمسّك بالحكم الشرعي، لأنّ الدين يسرٌ و ليس عسراً، و بأنّ الله ما جعل في الدين حرجاً، بل إنّ الدين سبيل نجاة للإنسان بسلوكٍ ما يحتمل لأنّه لم يُكلَّف بما لا يطيق، و هنا كان دوره بالغ الأهمية في أكثر من مجال يتّخذه لتيسير الحياة مع العمل بالأحكام الشرعيّة . و تيسير العيش في مجتمعات مختلطة من مسلمين و سواهم، فلا يشعر المسلم بالعزلة و لا يكون منبوذاً و لا يؤذي الآخر في تصرّف أو سلوك و يشعره بالمهانة، فالناس عندك صنفان: «**أخٌ لك في الدين أو نظير لك في الخَلق**»، و بالتالي لكلٍّ بابٌ يمكن أن يُطرَق و يُقام التواصل . فكم هي رائعة فكرته في التمييز بين الطّهارة الماديّة والطّهارة المعنويّة، و كم هي مهمّة فتواه بتحريم الكسب بالسّرقة و الغصب لمالِ غير المسلم، أو الاعتداء على أملاك المجتمعات غير الإسلامية أو الأموال العامّة للحكومات غير الإسلامية، و فهمه لقول النبيّ صلاة الله و سلامه عليه و على آله «**بأنّ البحر طهورٌ ماؤه حلٌّ طعامه أو لحمه**»، فأباح صيد البحر متخطّياً القيود التي أُلقيت عليه من غير بيّنة من سنّة أو كتاب، فأراح النّاس و لم يخالف الشارع الحكيم، أي (ما شرّعه الله).

٤- دقّة ميزان المصالح و المفاسد

إنّ العمل بالعقل قاد السيّد إلى تحديدٍ عميقٍ لمفهوم المصلحة و السّلوك لحمايتها و حفظها، فالعقل الواعي يجد أنّ المصلحة تكون في جلبِ نفعٍ للذات أو للآخرين ممّن نهتم بشأنهم أو دفعِ ضررٍ عن الذات و عمّن نهتم بشأنهم، و المفسدة تكون عكس ذلك . أي إنتاج ضررٍ أو إبعاد منفعةٍ عمّن ذُكر. و يكون معيار السلوك القويم هو في تحقيق المصالح و إبعاد المفاسد، مع التأكيد على أنّ النّفع و الضّرر هو ما يكون بنظر الشارع نفعاً أو ضرراً . و هنا كان السيّد يوصي و بعقلانيّة مطلقة، نفسه و الآخرين الذين يقتدون به أن يطرحوا على أنفسهم قبل أيّ سلوكٍ السؤالَ التالي: « أيّ نفعٍ أحقّق أو أيّ ضرر أدفع حتى أُقدِم هنا، في مدح هذا أو شتم ذاك؟

هل في إعطاء هذا أو ذاك نفعٌ أو ضررٌ ؟؟ فمتى تحقّقت المصلحة لفرد أو لأمّة من السلوك كان يوصي بالسير به إذا استُجمعت وسائله و مستلزماته . و لكي أكون أكثر دقّة في موضوع احتمَل الكثير من الجدل و النقاش في ما يتعلّق بالصحابة و قد رأى أنّ ذِكرهم بسوء يشكّل مساساً بمصلحة من مصالح الأمّة، وهي مصلحة الوحدة ومنع الشّقاق بين أبنائها و بالتالي فيه مفسدة، و كان موقفه من الأمر كما يعرف الجميع و كما اعتُمد راهناً من قبل الجميع.

٥ - درسُ التاريخ لتحسين الحاضر لا إفسادُه

و في فهم التاريخ نجد أنّ السّيد اعتمد قراءته بالعقل لا بالعاطفة و الغريزة، وإن كان للعاطفة محلّ لا يُلغى، و لكن يجب أن لا يتقدّم على العقل .فالتاريخ للاعتبار، لضبط الحاضر و تحسين المستقبل، و لا يكون استحضار التاريخ لنعيش حياةَ و مشاكلَ مَنْ كانوا فيه . و بالتالي لا نُسقط خطأً وقع ولا نتجاوز مفاعيله، و لكن لا نسقط في الخطأ ذاته و نجدّد مفاعيله . يجب التمسّك بعِبَر التاريخ، لا أن نعيش التاريخ ذاته . فيكون التاريخ عامل تحسين الحاضر و لا يكون عامل إفساده .

٦ - العلم في خدمة الفقه

احترام العلم و العمل بما يقود إليه و يُظهره، و تطوير الفهم للحكم الشرعي بما يجعل الحقيقة تبلغ بعلمٍ كما تبلغ بفقهٍ دون أن يكون بين العلم و التقنيات العلمية المتطوّرة تعارضٌ مع الحكم الشرعي الثابت ثبوتاً قطعيّاً، بل تكامل و تعانق فيكون العلم في خدمة الفقه و يكون الفقه مدخلاً للأخذ بالعلم . و من هنا كانت فتواه – الثورة في الفقه – باعتماد الحساب الفلكيّ لتحديد بدايات الشهور القمريّة، ما يؤدّي لو أجمع المسلمون عليه – و أعتقد أنّهم سيُجمِعون في يوم غيرِ بعيدٍ– لو أجمعوا لتوحّدوا و ظهروا كما يريدهم الله أمّة واحدة، و لا يكون انقسام مثير لنظرة

دونيّة من الغير ترمي المسلمين بالتخلّف . لقد استجاب للعقل الذي يؤمن بالعلم طريقاً للحقيقة رغم أنّه تأذّى من الآخرين بسبب موقفه هذا، لكنّه لم يتراجع لأنّ السيّد متى حقّق القناعة العقليّة ثَبَتَ على الموقف . فالعلم هو سِمةُ العصر و أَخْذُ العقل به أو إلحاق العاقل بعصره، أليس هذا ما يُراد لنا في الدّين من عملٍ بالمبدأ الإسلاميّ. عِش عصرك، و اعتبر من الماضي، و قدّم ما يبني المستقبل.إلا فيما كان له شيء من الخصوصيّة و الدلالة لحفظ الجذور .

٧ - تطوير الشكل و التمسّك بالجوهر

بالعقل حَاكَمَ بعضَ السلوكيات التي تُتّبَع في مراسم عاشوراء محاكمةً شرعيةً عقليةً مصلحيةً فأنكر بالعقل الشرعيّ بعضها، و حضّ على تطوير البعض الآخر متمسّكاً دائماً بجوهر الثورة الحسينيّة و دلالاتها و مضامينها، وانطلق من قاعدةٍ أساس و قناعةٍ مطلقة أنّ الحسين بما هو عليه حقٌّ و صدقٌ من غير خيال أو خرافة تُضاف، هو كبيرٌ فوق أيّ مستوى، و يكفي أنّه سيّد شباب بني البشر في الجنّة، فمَنْ يفوقه في هذه المرتبة أو يماثله غيرُ الأربعةِ الآخرين من أهل الكساء، و بالتالي ليس الحسين بحاجة إلى إضافات خرافيّة تُلصَق بسيرته و مسيرته حتى نُعليَ شأنه و هو في الأصل رفيع، أو نستدرّ دمعةً و إن كان في واقعه و مصرعه حدثٌ فظيع .

٨ - الحقيقة غايةٌ و الحُجّة دليلٌ

ثقته بمنطقه و قوّة حجّته الإسلامية جعلتاه يدعو دائماً للحوار، حتى أنّه سُمّي رجل الحوار و الانفتاح . دعا إليه ليكون العقل هو الحَكَمُ في النزاع و الخلاف و لأنّه كان يثق برجاحة عقله و قوّة حُجّته، كان يثق بأنّه سيكون في النهاية و بالنتيجة في الموقع الأعلى كما قال الإمام عليّ «**ما جادلت عاقلاً إلا وغلبته**»، و كان منفتحاً أيضاً على فكر الآخر، فإن رأى فيه صحّة أخذ به، لأنّه آمن بأنّ الحقيقة مُلْكُ من

يصل إليها، و ليست مُلْكَ من يكتشفها . و في الحوار كان محترفاً في تقديم الحُجّة التي تقبلها العقول فيحملها على السَّير بها . و من هنا نفهم كيف أنّ السيّد فرض احترامه على مَنْ لم يكن متديّنا بدينه و غير متّبِع لمذهبه . فالسيّد كان بحُجّته يجتاح العقول فيأسرها، و كان يأخذ بما تفرزه العقول السليمة إن ارتكزت إلى حجّة أو بيّنة .

السّيد مفتاح العودة الآمنة إلى الدّين

هذا غيضٌ من فيض النزعة العقلية في مسار السيّد في مفهومها و مفاهيمها، نزعة رسّخت ما قام عليه مذهب أهل البيت عليهم السلام من إرساءِ المكانةِ الرفيعةِ للعقل بوصفه أحد المصادر الأربعة في التشريع الإسلاميّ، والذي به عصرن الحكم الشرعيّ فكسر حواجز رُفعت بوجه مسلمين تغرّبوا فابتعدوا واستصعبوا العودة، فتح لهم السيّد طريقاً آمناً للعودة، عقلانيةً اعتمدها ففرضت صورةَ الإسلام المحترم النقيض لِما قدّمه أو يقدّمه آخرون من تحجّر في الماضي، ما تسبّب بعظيم الأذى لصورة الإسلام الذي جاء لكلّ زمان و مكان.عقلانيّة السيّد و واقعيّته جعلتاه لكلّ النّاس و لكلّ الفئات، فكان له مقدرة فائقة في مخاطبة كلّ الشرائح الاجتماعيّة، عاملاً بالقاعدة في خطاب الناس مخاطبةً على قَدْرِ العقول، فكان بما امتلك و اعتمد من نزعة عقليّة في السلوك يعرف المستوى العقليّ للمخاطَب فيختار من العبارة و الأسلوب والمعاني ما يناسب فلا يبدو متعالياً على البسطاء، ولا متفاوتاً في المستوى مع العلماء. فطرق القلوب العاقلة فانقلبت لتكون له مسكناً دائماً .





فعالية العقل

في ترشيد الخطاب الإسلامي

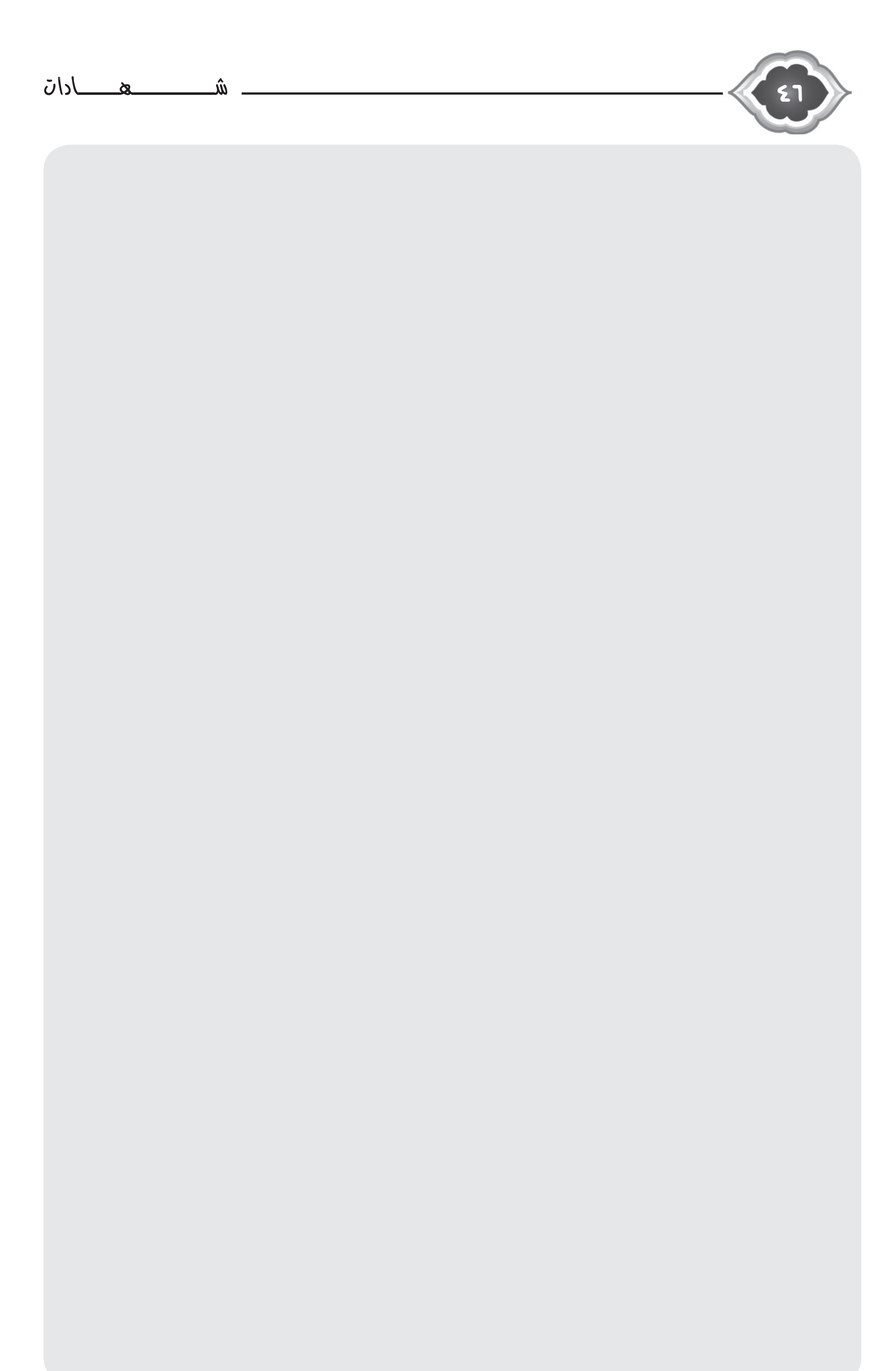
د. السيّد محمّد رضا فضل اللّه



محاضرة أُلقيت في الجمعيّة الإسلاميّة

للتخصص والتوجيه العلمي

بتاريخ ٢٥/١١/٢٠١٠



العقل المسؤول

«أن تكون مُسلماً حقّاً، أن تكون عقلاً مُنفتحاً، عقلاً يلتقي بالعاطفة ليرقّ ويلين، وعاطفة تلتقي بالعقل لتتماسك وتتوازن».[١]

لقد انطلق الإسلام في حياة الناس من قاعدة أصيلة في نظرته إلى العقل وهي: اعتبار العقل قوّةً صالحةً للحُكم على الأشياء، وميزاناً يزن به صحّة القضايا وفسادها، حتى جاءت بعض الأحاديث الشريفة لتقول: إنّ العقل هو الرسول الباطنيّ، ولِتَصِفَ الرسول البشريّ بأنّه عقلٌ من الخارج، ما يؤكّد على احترام الإسلام للعقل ودوره في العقيدة والشريعة والمعاملات[٢] والعقلانية ـ كما يحدّدها السيّد ـ هي الطريقة الموضوعيّة للتفكير، التي تعمل على أساس دراسة أيّة قضيّة أو فكرة... من خلال عناصرها الذاتيّة، وخصائصها الموضوعية، فيما يحيط بها من ظروف، وما يتحرّك في آفاقها من تطلّعات. وعلى هذا الأساس فإنّ العقلانية يمكن أن تضعها في مقابل العاطفية والانفعالية التي تعتمد على العنصر الشعوري في مواجهة القضايا بدلاً من العنصر العقلي[٣].

ومن منطلق ديني إسلامي يرى السيد أنّ الله تعالى أراد للإنسان أن يكون عقلاً مسؤولاً يفكّر ويُبدِع ويخطّط ويريد ويختار، فَمِنَ العقل يُولَد العلم وينمو ويتطوّر ليطوّر الحياة، ومن العقل، أيضاً، يُنتج معنى الروح لتتوازن بها شخصيّة الإنسان.

---

(١) السيد محمد حسين فضل الله: الندوة، ج١٢، ص٣٧٤ ـ دار الملاك ـ بيروت ٢٠٠٤

(٢) السيد محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن/ ص٢٩ ـ الدار الإسلامية ١٩٧٩

(٣) غسان بن جدّو: خطاب الإسلاميين والمستقبل، ص٢٣ ـ دار الملاك بيروت ١٩٩٥

والعقل من خلال النصوص الدينيّة، هو الذي يفتح آفاق الإنسان نحو اللّه تبارك وتعالى، نحو المطلق اللامحدود، فتقترب محدوديّته كبشر من بعض ملامح المطلق، ليحلّق في الأعالي، فيفتح بذلك النور على كلّ كيان الإنسان[١]. وقد ورد في الحديث الشريف: «**أنّ الله لمّا خلق العقل قال له: أقبِلْ، فأقبَل. ثم قال له: أدبِرْ، فأدبَر، ثم قال: وعزّتي وجلالي، ما خلقت خلقاً أعزَّ عليَّ منك، إيّاك آمر، وإيّاك أنهى، وبك أُعاقب، وبك أُثيب**»[٢].

العقل المفكّر

وعندما ندخل إلى آفاق القرآن الكريم نجد الكثير من آياته تتحدّث عن آيات اللّه في الكون ليقول للإنسان: إقرأ كتاب الكون، وانطلق بعقلك لتدرس كلّ آيات اللّه، وكلّ ما تحويه من سُنن وظواهر، وكلّ ما يحكمها من قوانين وأسرار، لتنفتح من خلال العقل على اللّه سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤].

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل:١٠-١١-١٢].

---

(١) (م.س) الندوة: ج١٢، ص٢٣٩

(٢) الكليني: أصول الكافي ج١، ص١٠

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

في هذه الآيات القرآنية وغيرها مفردات: (**يعقلون، يتفكرون، ينظرون، أولي الألباب...**) نلاحظ صداها يتردّد في مساحة واسعة من القرآن الكريم، إنّها دعوة إلى أن يفكّر الإنسان بعقله، يفكّر في كلّ ظاهرة كونيّة أو سُنّة تاريخيّة، لينطلق هذا العقل من خلال ذلك نحو الله، وليقترب إليه من خلال تعقّل آياته في كلّ مجالات الحياة، فكلّ ما في القرآن هو حركة ومفاهيم قيّمة لا بدّ للإنسان من أن يتدبّرها من أجل أن ينمو عقله ويكبر(١)، وفي الوقت ذاته على العقل أن يبقى في حالة استنفار، ليُتحف الإنسانية بالجديد الذي هو منطلق التطوّر والتقدّم.

المنهج النبوي

وفي هذا السياق القرآني نلتقي بالأنبياء وهم يجسّدون التعاليم الدينية التي توقظ العقل من سُباته ليضجّ حركةً وموقفاً، يظهر ذلك في عقلانيّة الحوار الذي كانوا يُجرونه مع قومهم، إذ كان مأخذهم الأساسيّ على مواقف قومهم هو أنّهم لا يتحرّكون بمنطق يُقنع العقول، ولو أنّهم عقِلوا القضايا المطروحة عليهم، لما وقفوا ضدّ دعوتهم(٢). فمشكلة هؤلاء القوم أنّهم يتشبّثون بإرثهم التاريخي الذي تجذّر في أعماقهم، بحيث يجدون صعوبة في الانسلاخ منه، لذا نراهم دائماً يردّدون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣].

لقد أراد الأنبياء، أن يحرّكوا العقول من أجل إنتاج الحقيقة، لكن عمق التربية المتخلّفة حال دون الانفتاح على الجديد، وقد حَفِلَ القرآن الكريم في آياته بعرض

(١) الندوة (م.س) ج١٢، ص٢٤٠
(٢) الندوة (م.س): ج١٢، ص٢٤٧

سِيَر الأنبياء الذين لم يوفّروا أيّة فرصة لإثارة عقول الناس، ومن أبرز هؤلاء، النبيّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي تحدّث مع قومه بمنطق وعقلانيّة، فبعد أن كسّر أصنامهم، وأبقى كبيرهم، معلّقاً الفأس بعنقه، أراد أن يهزّ قناعاتهم من خلال الصدمة الفكريّة التي توقظ الفطرة السليمة لديهم: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء:٦٣]

وكان جوابهم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاء يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء:٦٥].

وأخيراً جاء الردّ الحاسم الذي يستنفر كلّ قدراتهم العقلية: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء:٦٦-٦٧].

ونأتي إلى النبيّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في حواره مع فرعون حينما دعاه إلى عبادة الله ربّ العالمين: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]

قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤]. وهنا لم يردّ فرعون على هذا المنطق بمنطق مماثل، بل حاول من جهة أن يُثير السّخرية، ومن جهة أخرى أن يمارس الشتيمة والسُّباب، وذلك من خلال استعراض قوّته أمام أتباعه: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٥]

أجاب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مكمّلاً: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦]

قال فرعون: ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]

لم يكترث موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بل أكمل الحديث عن صفة ربِّ العالمين من أجل أن يحرّك عقولهم، ولا يفكّروا بغرائزهم، : ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨].

إنّ الأنبياء عليهم السلام بدعوتهم هذه وغيرها من المواقف أرادوا أن يؤكّدوا أنّ العقل هو الميزان، وهو سرّ حرية الإنسان وكرامته، وهو الطّاقة التي تبصّر الإنسان بكلّ ما يتعلّق بحياته في الدنيا والآخرة[١]. وأكثر ما تجسّدت هذه الدعوة في مواقف النبيّ محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وخصوصاً في مواجهة سياسة الغوغاء التي اعتمدها المشركون من أجل أن يُنتجوا الضّباب الذي يحجُب الرؤية الواضحة عن العقول.و قد حدّثتنا السِّيرة أن مُشرِكي مكّة كانوا يتّهمون النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بالسِّحر والكَهانة والجنون وغيرها من الصِّفات التي تشوّه شخصيّته، وتنال من هيبته، وتمنع الآخرين من الاقتراب منه، أو التأثّر به.

العقلانيّة الدينيّة

أمام هذا الجوّ، أراد الله تعالى من نبيّه أن يستخدم الأسلوب العقلانيّ الذي يحاول به إثارة التفكير لديهم بعقل هادئ، فقدّم لهم المنهج الصالح لإنتاج الحقيقة، وذلك من خلال دعوتهم للتفكير بعيداً عن الضوضاء، ليفكّروا باستقلاليّة وموضوعيّة وبطريقة علميّة ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**﴾ [سبأ:٤٦] دعاهم أن ينفصلوا، ويتفرّقوا... فرداً فرداً... اثنين اثنين... عن هذا الجمع الذي يحرّكه الإرث التقليدي المتراكم، والعصبية العمياء المتخلّفة، ليتفكّروا ما بصاحبهم من جِنَّة (أي ليس مجنوناً).

هذا المنهج، يقول السيّد: «هو ما نحتاجه في كلّ واقعنا السياسيّ والاقتصاديّ والاجتماعيّ، إذ هناك ما يُسمى في علم النفس بمصطلح: «العقل الجمعي»، فعندما يكون الفرد ضمن الجماعة، فإنّه يتحرّك بشكل مختلف فيما لو كان فرداً، بحيث تسيطر عليه أصوات الجماعة، فينجذب إليها غرائزيّاً، فيفقد استقلاله الفكريّ، ويصبح جزءاً من الحمّى الجماهيريّة»[٢].

---

(١) الندوة (م.س): ج١٢ ـ ص٢٥٠

(٢) الحوار في القرآن: ص٤٤

وبكلمة مختصرة: لا يكفي أن تكون لدينا فكرةُ الحقّ، بل لا بدّ وأن يرافقها الأسلوب الذي تتحرّك فيه الفكرة على أساس الحكمة لكي تدخل عقولَ الناس من أقرب طريق. هذا هو التوجيه القرآنيّ:

﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء:٥٣]

﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥]

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت:٣٤]

وسماحة السيد أراد أن يحرّك العقل في كلّ نشاطات الإنسان التي تتمثّل في حركته في الكون كلّه، فإذا أردنا أن نتوسّع في الحديث عن دور العقل بكلّ عناوين عالم الوجود، تطلّب ذلك منّا بحثاً لا تتّسع له مساحة هذه الندوة المباركة، لأنّ ما عالجه السيّد من موضوعات خلال رحلته العمرية السبعينيّة يمثّل خزّاناً من المعرفة لا نستطيع أن نسبر أغواره بسهولة، وهو ما دخل في كلّ أبواب العلم من دين إلى اجتماع إلى سياسة إلى فلسفة إلى اقتصاد إلى أدب... وفي كلّ أبحاثه هذه كان عقلانيّاً، وربّما كادت عقلانيّته الدينية تكلّفه حياته، وخصوصاً في معركته الضارية مع المتخلّفين والغُلاة والتكفيريّين والمتعصّبين وتُجّار العِلم والسياسة والاقتصاد والاجتماع... يشهد بها التاريخ المعاصر، لذا كانت صرخته المدوّية لن أُهادن المتخلّفين... لن أُهادن المُغالين...

لذا سأقصر الحديث عن موضوعٍ طالما كان محور اهتمامه، ومرتكز حركته، وقاعدة تفكيره... وهو عقلانية الخطاب الإسلامي، أو فعالية العقل في ترشيد الخطاب الإسلامي.

عقلانية الخطاب الإسلامي

الخطاب الإسلاميّ يمثّل إطلالة الإسلام من خلال مفكّريه أو دُعاته على واقع الإنسان كلّه، من أجل أن يخاطب عقلَ الإنسان وقلبَه وحياتَه بالمفاهيم الإسلامية المتحرّكة التي تحكم حركة العقل والقلب والحياة.

لذلك فمن الطبيعي أن يكون الخطاب الإسلامي منسجماً مع المفاهيم الإسلامية الأصيلة، ومتحرّكاً في دائرة الأسلوب الإسلامي الذي يؤكّد على الحكمة التي تمثّل وضع الشيء في موضعه، والموعظة الحسنة التي تمثّل الفكرة التي تفتح قلب الإنسان من خلال عناصرها الحميمة التي تتحرّك في دائرة الشعور الإنسانيّ، دون أن تثير فيها الحساسيّات السلبيّة والحالات المُتشنّجة المعقّدة[1]، وذلك استناداً إلى الآية الكريمة: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥].

وعلى هذا الخطّ، فإنّ الخطاب الإسلاميّ ينطلق من الكلمات التي لا بدّ من أن يحرص المُحاوِر على اختيارها، وذلك في عملية استنفار ليتمكّن من التمييز بين الكلمة الحسنة والكلمة السيئة، وليختار الكلمة الأحسن التي تختصر الطريق إلى عقل الإنسان وقلبه: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء:٥٣].

وهنا يتوقّف السيد أمام العقل الذي يجب أن يحتاط في اختياره للكلمات، مستحضراً أقوالاً للإمام علي عليه السلام:

«**لسان العاقل وراء قلبه، وقلب الأحمق وراء لسانه**»[2]

---

(١) خطاب الإسلاميين والمستقبل (م.س): ص (١٨-١٩)

(٢) نهج البلاغة الخطبة ١٧٦

«واعلم أنّ الكلام في وثاقك ما لم تتكلّم به، فإذا تكلمّت به صرت في وثاقه، فاخزن لسانك كما تخزن ذهبك وورقك»(١).

فالعقل سيّد الأعضاء، وهو سيّد حركة الإنسان، فالعاقل يفكّر دائماً في نتائج الكلمة قبل أن ينطقها، فإذا رأى نتائجها خيّرةً نطق بها، وإذا رأى أنّها طريق للفتنة بين الناس أمسك، فاللّسانُ هو جنديٌّ من جنود العقل، والعقل هو القائد، بينما لدى الأحمق يجري العكس، حيث القيادة تتمثّل بحركة اللّسان، وحيث يتحوّل العقل إلى جنديّ من جنوده.

خصائص صاحب الخطاب

وحتى يكون الخطاب فاعلاً ومقنعاً لا بدّ وأن تحكم شخصيّةَ المخاطِب بعضُ الصفات التي تبعث على الثّقة وتدعو إلى الاحترام، ومن هذه الصفات:

١ ـ الكفاءة العلميّة

أن يمتلك كفاءة علميّة كافية يستطيع من خلالها أن يعرض الفكرة، ويحلّل عناصرها، بتقديم الدليل الذي يُقنع، ويؤكّد تسليم الآخر بقوّة حجّته كما أنّ عليه أن يحيط بثقافة الآخر ممّا يعتبره سنداً لمبادئه وحجّة لأفكاره حتّى يخلص الخطاب إلى الموازنة والمفاضلة ثمّ النتيجة. ﴿هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:٦٦].

فالجهل أو العلم الناقص قد يحوّل الخطاب إلى لون من المهاترات التي يغطّي فيها كلٌّ منهما عجزه وضعفه عند الدفاع عن فكرته، بينما تجعل المعرفة كلاً منهما

(١) نهج البلاغة قصار الحكم ٣٨١

واعياً لما يُطرح من فكر، ولما يُستقبل من فكر، وكيف يمكن أن يُدير الحوار من خلال وضوح الرؤية، وهدوء العرض، وقوّة الدليل، ووداعة الكلمة[١].

٢ ـ القدوة في السلوك

أن يجسّد القدوة في سلوكه وأدائه، بحيث يمزُج القولَ بالفعل، وهذا يفرض أن يكون أميناً على ثقافته، واعياً في قناعاته، حكيماً في مسؤوليّاته، مرناً في معاملاته، وفاعلاً ومغيِّراً في محيطه، وبذلك يحصل على ثقة واحترام ومحبّة محاوره.

٣ـ الأسلوب الأحسن

أن يعتمد الأسلوب الإنسانيّ الرصين الهادئ: فالكفاءة العلميّة والأُسوة الحسنة لا تحقّقان فعالية الخطاب إذا لم يرافقها الأسلوب الحواريّ الأفضل والأحسن والأجمل، الذي يأخذ بعين الاعتبار طبيعة المُخاطَب بخصائصه وحاجاته الأساسيّة، وظروفه الاجتماعيّة، والأنماط التربويّة التي خضع لها... الأسلوب الذي يتّسم بالمحبّة والرحمة واللّين و «**بالتي هي أحسن**»... الأسلوب الذي ينطلق من الاعتراف بالآخر لينفتح بالتالي على عقله من خلال العاطفة الإنسانيّة التي تخفّف من سلبيات الصراع، والتي تمتصّ كلّ الحساسيّات والمشاعر السلبية[٢].

كيف يحقِّق الخطاب أهدافه؟

ومن أجل أن يحقّق الخطاب أهدافه، لا بدّ من أن ينطلق المخاطِب من الإحاطة بخصائص وحاجات، وخلفيات وأجواء وظروف مَنْ نخاطب، فالخطابُ بمضمونه وأسلوبه ووسيلته يختلف تَبَعاً لاختلاف المستوى الذي يمثّله الآخر (سواء كان فرداً

---

(١) الحوار في القرآن (م.س): ص (٥٠ ـ ٥١)
(٢) الحوار في القرآن (م.س): ص ٥٢

أو مجتمعاً)، باعتبار أنّ لكلّ مقامٍ مقالاً، والشخص جزءٌ من المقام، ما يستدعي أن تخاطِب اهتماماته الفكريّة في مستواها الثقافيّ عمقاً وسعة وامتداداً، فمثلاً خطاب النُّخبة يجب أن يكون في المستوى الذي تحترمه عقول هؤلاء، وخطاب الجماهير يجب أن تنطلق ميزاته من طبيعتها الفكريّة والعمليّة، ومن خلال الظروف الداخليّة والخارجيّة المحيطة بها[١].

لذا لا بدّ للخطاب الإسلامي أن يبقى في دراسة ميدانيّة لا تحدّق في المستوى الثقافيّ للإنسان الذي يخاطبه فحسب، ولكنها تحدّق بكلّ مفردات الواقع التي قد تُحوِّل المثقّف إذا أهملها بَدوِّياً في مشاعره وأحاسيسه، وقد تحوّل البَدْويّ إذا حدّق بها مثقّفاً في بعض منطلقاته في الحياة[٢].

خلاصة القول هنا ينبغي للمخاطِب أن يتقيّد بالضوابط التالية التي تعطي نكهة فكريّة وإنسانيّة للخطاب:

ـ أن يتعامل بالمستوى الذي ينسجم مع شخصيّة المحاوَر بكلّ أبعادها.

ـ أن يحيط بواقعه النفسيّ الذي يُظهر ما يحبّ ويألف ويكره ويعتقد...

ـ أن يكتشف طبيعة المفتاح الملائم الذي يدخل به إلى روحه وعقله وعالمه.

ـ أن يحدّد طبيعة اللّغة التي يخاطِبُ بها كأسلوب للتواصل والتفاهم.

في هذا الإطار يقول السيّد: «لا بدّ من وعي ذهنيّة مَنْ نخاطب، بمستوى تفكيره، وطبيعة ظروفه، ومستوى أخلاقه، ونقاط ضعفه، ونقاط قوّته، فبدلاً من أن ندخل في الحوار إلى عالَم مغلق لا نعرفه، ندخل إلى عالمٍ مفتوحٍ نتعرّف تدريجياً إلى مواقعه»[٣].

---

(١) خطاب الإسلاميين والمستقبل (م.س): ص٥٥
(٢) المصدر نفسه ص ٥٧
(٣) السيد محمد حسين فضل الله: دنيا الشباب ص١٢٧ـ دار الملاك بيروت

ويضيف السيّد في مقام آخر: «علينا أن نعمل لنهندس الطريقَ إلى فكره حتى يتحرّك الإسلام في الدّروب الطبيعيّة التي تصل إلى عمق شخصيّته بحيث لا نتجمّد أمام الحواجز التي ننصبها بين فكرنا وبين شخصية الآخر الذي نتحدّث عنه[١].

سمات الخطاب الإسلامي

١ ـ الكلمة الطيّبة

يتمتّع الخطاب الإسلامي بمجموعة من السمات والخصائص أبرزها:

أن يبدأ وينطلق بالكلمة الطيّبة والقول الحسن.. في هذا السياق يستلهم السيّد الآية القرآنية: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم:٢٤ ـ٢٤].فالفكرة حتى تجد طريقَها إلى عقل الإنسان، لا بدّ وأن تتسلّح بالكلمة الطيّبة التي تجعل عقل الإنسان ينفتح بكلّ الطيب، فالكلمة الطيّبة تمثّل كلَّ إيجابيات الحياة، وكلَّ إنسانية الإنسان، وقد شبّهها الله تعالى بالشجرة الطيّبة في عطائها وحيويّتها وامتدادها، والتي تتجذّر عروقها في أعماق الأرض، وتمتدّ بفروعها وأغصانها إلى عنان السماء[٢].

من هذا المنطلق، كان سماحته يستلهم الآيات القرآنية:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣]

﴿ وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ

---

(١) خطاب الإسلاميين والمستقبل (م.س) ص ٤٧

(٢) السيد محمد حسين فضل الله: من وحي القرآن: ج١٣ (ص١٠٥ ـ ١٠٦) ـ دار الملاك ـ بيروت

كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيـمٌ﴾ [فصلت:٣٤].ففي هذه الآيات يختار لنـا القرآن الكريم أسلوب اللّين، مشيراً إلى النتائج الإيجابية العمليّة التي يجنيها الفرد، إذ يحوّلُ الأعداءَ إلى أصدقـاء، ينطلقون معه فيما يفكّـر فيه، وفيما يعمل له، ثم يعقّب على ذلك بالقول: ﴿وَمَـا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَـرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٥]، ممّا يوحي بـأنَّ السَّير في هذا السبيـل يحتاج إلى مَلَكةٍ عالية من الصبر، وإلى حظّ عظيم من الإيمان، لأنَّ ذلك يخضع لقـوّة أعصاب، ومرونة شخصيّة في مواجهتها التحدّيات والخصومات ومشاكل الصّراع(١).

وهنا لا يغيب عن اهتمامات السيّد ما تُتحفنا به وسائلُ الإعلام من حوارات تتّسم بالحدّة والشدّة، وقد تخرج في بعض الأحيان عن حدود الآداب المعتبرة، فيرفض استخدام الكلمات الحادّة والنابية، وبالأخص حينما تكون الفرص مؤاتية لكلمات هادئة، إذ لا يُحسَن اللّجوء إلى الحركات والأجواء المنفعلة إذا استطعنا أن نستبدلها بالحركات المُتّزنة والأجواء الوادعة(٢).

٢ ـ الحكمة البليغة

أن يستخدم بُنيَة لغويّة ملائمة، وحتّى نضمن نتائج الحوار الفكريّ الذي ينطلق من احترام الآخر، نتوقّف عند طبيعة اللّغة التي تمثّل بُنية الخطاب، بحيث يكون سقف الخطاب ملائماً للمستوى الثقافيّ والمخزون اللُّغوي الذي يتمتّع به المخاطَب، فلا نتكلّم معه بلغة انفعاليّة استهلاكيّة، أو بلغة لا يفقه مصطلحاتها أو قواعدها. يقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنّا معاشر الأنبياء أُمِرْنا أن نكلّم الناسَ على قَدْر عقولهم**».

أن ندرس عقليّة مَنْ نخاطِب، لنعرف كيف نختار الكلمة المناسبة، والتعبير

(١) الحوار في القرآن (م.س): ص٥٣
(٢) الحوار في القرآن (م.س): ص١٢٣

العقلانيّ الهادئ الذي يفتح العقول على ما يُطرح من أفكار وعقائد ومفاهيم، وهذا ما يمكن أن نستوحيه من استخدام كلمة الحكمة ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل:١٢٥].

والحكمة تعني وضعَ الشيء في موضعه، وهذا ما تُعبِّرُ عنه بلاغة الكلام: بأنّها مطابقة القول لمقتضى الحال، ومقتضى الحال تدخل فيه الذهنية والجوّ والتقاليد وكلّ الظروف المحيطة بالإنسان[١].

المهم هو أن نختار الأسلوب الأفضل الذي نتسلّل به إلى العقول بهدوء، ونحرّك به المشاعر بلطف.

٣ ـ حِسُّ المُعاصرة

أن يعيش المُحاوِر أو المُخاطِب حسَّ المعاصرة، بحيث يفهم عصره من حيث تطلّعاته وخطوطه وأوضاعه العامّة على كلّ المستويات، لأنّ الإنسان الذي لا يفهم عصره، لا يستطيع أن يتفاعل مع لغة النّاس الذين يخاطبهم، فالمعاصرة لغة، باعتبار أنَّ اللّغة ليست مجرّد حالة صوتيّة بل هي حالة ذهنيّة، ولا بدّ لمن يتصدّى أن يخاطب عصره من خلال ذوق العصر، وفهم العصر، وإحساس العصر[٢]، مع العلم أنّنا نلتقي بالكثير من الدّعاة الذين يخاطبون عصرهم بلغة حجريّة جامدة انطلاقاً من قيمة تركّز على تقديس التّراث بكلّ ما يحتويه. ما نريده لغة علميّة منطقيّة لا تعتمد الخرافة والغلوّ والعصبيّة وتحقير الآخر[٣].

(١) السيد محمد حسين فضل الله: دنيا الشباب ص١٢٧ ـ دار الملاك ـ بيروت

(٢) خطاب الإسلاميين والمستقبل (م.س) ص١٩

(٣) الحوار في القرآن (م.س) ص١٢٧

٤ ـ خطوط اللّقاء

أن ينطلق في الخطاب من مواقع اللّقاء، ذلك أنّنا حتّى نحافظ على عقلانيّة الخطاب وجدّيته، من المفيد أن يبدأ التداول في القضايا المشتركة التي يؤمن بها الفريقان، ممّا يفسح المجال لكسب ثقة الآخر، وردم الهوّة، وإلغاء الكثير من التعقيدات، وتجميد العديد من الحساسيّات، وتقريب ما أمكن من الأفكار، حتى إذا انتهى الأمر إلى مواطن الخلاف، كانت الطريقة معبّدةً أمام الطرفَيْن للوصول إلى صيغة تفاهم متوازنة، وهذا ما كان يركّز عليه سماحة السيد مسترشداً بالآية القرآنية:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٦٤].

الفكرة هي البَدْءُ بمواطن اللّقاء التي تركّز التعايش على أرض مشتركة صلبة، يقف عليها كلّ الفرقاء، وتوحي باكتشاف أراضٍ جديدة للقاء، كما أنّها تُشعِر المُخاطَب بالطُمأنينة والثّقة انطلاقاً من مشاركته في بعض قناعاته، والتصريح بالإعجاب بأفكاره الصحيحة، وأدلّته المنطقية، ومعلوماته المفيدة بأمانة وصدق، ودون تلفيق أو نفاق، وهذا من شأنه أن يفتح القلوب، ويقارب الأفكار، ويفسح المجال أمام سيادة روح الموضوعيّة والتجرّد، ليتمّ الانتقال بعدها إلى المسائل الأخلاقيّة بعقلانيّة ومنطق، مُتجاوزين بذلك أسلوب التحدّي والاتّهام[1].

ويتوقّف السيّد عند هذه الآية: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ

(١) المصدر السابق: ص١٢٣

مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٦]. ليحدّد طبيعة الأسلوب المطلوب، فيقول: إنّنا نجد في هذا الأسلوب الشهادة الواضحة على ما في الإسلام من مرونة ووداعة، فقد حاول أن يلتقي بأهل الكتاب من خلال الإيمان بمقدّساتهم من موقع الإيمان بمقدّساته، بحيث لا تمثّل القضيّة أيّ تنازل من قِبَلِه بفعل المُجاملة، والبحث عن قاعدة اللّقاء كيف كانت، بل هي منسجمة مع واقع العقيدة والإيمان، الأمر الذي يملأ أطراف الحوار بالشعور بالقرابة الفكريّة والروحيّة إليهم ممّا يوحي بأنّ الالتقاء به لا يبتعد بهم عن مواقعهم الأصيلة من حيث المبدأ[١].

ويأتي هذا الأسلوب الذي يستلهمه السيّد من القرآن الكريم ليحدّد لنا نهج الحوار مع الآخر، سواء كان مسيحيّاً، أو من دين آخر، فالمطلوب وَفْقَ السيّد الاستناد إلى ثقافة الحوار ودخول ساحته بذهنيّة موضوعيّة مرنة هادئة، تماماً كما يخوض أهل العلوم العصريّة حواراتهم.. يقول السيّد:«علينا أن نستفيد من الموضوعيّة في الفكر العلميّ خارج نطاق الفكر الدينيّ، لنجعل الفكر الدينيّ يتحرّك في هذه الأجواء، إنّنا بذلك لا نحتاج إلى صنع ذهنيّة جديدة لأنفسنا، فهذه موجودة في أكثر مواقع الثّقافة.

وهذا يحتاج إلى كثيرٍ من المعاناة والتربية، وإلى كثير من التحرّك الواعي من أجل إيجاد مناخات فكريّة وعقلانيّة، ينطلق فيها العلماء من الفريقَين لمواجهة أيّ نقدٍ يُوجَّه إلى فكرهم الدينيّ دون تشنّجات وتعقيدات، من خلال الحجّة بالحجّة، والمنطق بالمنطق، بطريقة هادئة على أساس ما نسمّيه بالعقل البارد»[٢]، انطلاقاً من التوجيه القرآني:

﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:١١١].

---

(١) الحوار في القرآن (م.س) ص١٢٥

(٢) السيد محمد حسين فضل الله: آفاق الحوار الإسلامي ـ المسيحي، ص٣٩٢ ـ ٣٩٣

٥ـ مواجهة التقليد

أن يقتحم السّاحة الفكريّة بالجديد: يعود السيّد إلى تجربة الأنبياء مع قومهم، الذين كانوا يستنفرون حينما يفاجئونهم بالجديد، الجديد الذي يقتحم موروثاتهم بتقاليدها وعاداتها، فهم يشعرون بالوحشة من ترك ما ألِفوه، ويحرصون على الاحتفاظ بالقديم، لا بل هم يستميتون في الدّفاع عنه مردّدين التعابير التقليدية: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣]. فالقضيّة عندهم ترتبط بالامتداد الاجتماعيّ للتاريخ في حركة الزمن، وكأنّ الزمن يتجمّد، في حركة الفكر، عند ذلك التاريخ الذي قد يمتدّ إلى آلاف السنين والذي قد يكون عاش ذهنيّة الخرافة والجهل والتخلّف: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٧٠].

ويأتي الجواب: وهل آباؤكم يملكون العقل الواعي الذي يكتشف الحقيقة، وهل كانوا يملكون الثقافة التي تُنضج الفكر؟ ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٧٠]

﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة:١٠٤]، أي حتى لو كان هذا الجهل هو الذي يُجمّد المجتمعات ويُسقط الحضارات[١].

ثم يعقّب السيد: «**إذا كان هذا واقع الأنبياء مع قومهم، فإنّ هذا ينسحب على ما نعيشه واقعاً حيّاً في حركة المصلحين، الذين انطلقوا يواجهون بعقلانيّة كلَّ عناصر الجهل والتخلّف والخرافة، والجواب هو ذاته: هذه عاداتنا، هذه تقاليدنا، هذه ثوابتنا الدينيّة أو المذهبيّة أو الحزبيّة**»[٢]...

---

(١) الندوة (م.س): ج١٢ ص ٢٥٨
(٢) الندوة (م.س): ج١٢ ص (٢٥٨ ـ٢٥٩)

في هذا الإطار يطلق السيّد نداءه العقلانيّ الحميم:

«أيّها الإنسان... لا ترفض الجديد لمجرّد أنّه يختلف عن القديم، ولا تقبل الجديد إلا بعد أن تستنفر عقلك، وتستعرض ثقافتك لتواجهه بالحوار الذي يمكن أن يكتشف الحقيقة. إنّ علينا أن لا نبادر إلى رجم كلّ فِكر جديد، بل أن نفكّر فيه، ونُحاكمه على ضوء مقاييس العلم والمنطق، وبذلك يمكن أن نُغني الإسلام بالفكر الذي يصنع الحضارات التي تُبنى قواعدها على العلم الجديد والفكر الجديد، حاول أن تفتح الفكر الإسلامي على الهواء الطلق، وعلى إشراقة الشّمس، فمهما تحرّك المتخلّفون والجامدون في أفقهم الضيّق، فإنّ الوعي سوف يفرض نفسه عاجلاً أو آجلاً، وإنّ الذين يحرّكون الوعي الثقافيّ والسياسيّ والاجتماعيّ في الأمّة لن يتراجعوا عمّا يتحرّكون فيه، ولن ينهزموا، ولا يُبعدهم عن خطّهم كلُّ الكلمات اللامسؤولة، والاتّهامات البالية»[١].

وهنا لا بدّ من طرح الإشكاليّة التالية: إنّ المنتجين للفكر الماضي قد يكونون من المخلِصين لفكرهم، ممّا يسبغ على هذا الفكر بعضَ القداسة أو الثّقة... ولكنّ الإخلاص لا يعني الصواب، فربّما يُخلصُ الإنسانُ لفكره، ولكنّه لا يملك الوسائل التي تصل به إلى مستوى الصواب[٢].

٦ ـ الدليل والبرهان

أن يعتمد العقل محور خطابه الفكريّ: الخطاب الإسلاميّ ينطلق من اعتبار العقل القوّة الصالحة للحكم على الأشياء، والميزان الدقيق الذي يُظهر صحّة القضايا وفسادها، فالإسلام يطلب من المسلم أن يعتمد منطق العقل أساساً للحوار، من خلال ذلك نجد السيّد يخاطب أحبّته: «ليكن شعارنا في مجتمعاتنا

(١) السيد محمد حسين فضل الله: بيّنات، ص١١٨ ـ دار الملاك ـ بيروت ١٩٩٩
(٢) الندوة (م.س) ج١٢: ص٢٥٩

عندمـا نختلـف مـع بعضنـا البعض، أو نتحـاور: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[البقـرة:١١١].

وبذلك ندخل عصر المعرفة المُنفتحة على الحجّة والدليل، ونبتعد عن العصبيّة والشخصانيّة والعائليّة والحزبيّة والطائفيّة والمذهبيّة، فهذه العصبيّة قد قتلت بالفعل مجتمعنا، لأنها حوّلته من مجتمع يتحرّك بغرائزه، بدلاً من أن يتحرّك بعقوله»[١].

وعلى هذا يُحذّر على المخاطب طرح أمور فكريّة يسارع إلى تكذيبها، لأنّها لا تستند إلى دليل مقنع: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان:٢٠].

ومشكلتنا أنّنا نتحاور «حوار الطرشان»، فكلُّ شخص يريد أن يؤكّد ما يلتزمه، فيتعصّب له، وليس مستعدّاً لأن يستمع بجدّية إلى وجهة نظر الآخر، أمثال هذا يعبّر عنهم القرآن الكريم بعبارات قاسية: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال:٢٢].

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩]. هؤلاء الذين ينطلقون في الحياة من خلال أهوائهم وغرائزهم، فلا يستنطقون عقولهم، لأنّهم يجعلون أهواءهم البوصلة التي يستهدون بها في حركتهم: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ [الفرقان: ٤٣].

أمّا من يعمل الإسلام على تربيتهم فهم الذين يسمعون القول فيتّبعون أحسنه، الذين يستمعون، يفكّرون، يختارون الأفضل: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمر:١٨].

---

(١) الندوة ج٥: ص١٧١

٧. تجاوز الجدل العقيم

أن لا يتفاعل مع الجدل الغوغائي العقيم: الجدل الذي لا يُراد منه سوى المزيد من مواقف عرض العضلات، بمزايدات كلاميّة لا تلامس جوهر الموضوع المطروح، الجدليّون هؤلاء لا ينشدون سوى تسجيل النّقاط على الآخرين، من أجل أن يُحقّقوا تفوّقاً عليهم، ليعيشوا حالة الزهو والكبرياء، دون أن تكون لديهم النيّة في التوقّف عند ما يُطرح من أفكار. ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ [فصلت:٥]. في هذا الجوّ عليك أن تُشعِر الآخر أنّك وإيّاه رفيقان في رحلة البحث عن الحقيقة، فتحترم وجهة نظره، وتعالجها بحكمة، فلا مهزوم ولا منتصر، فليس مهمّة من يدعو إلى الله تعالى، أن يُحقّق الغلبة ليُشبِع غريزة العظمة لديه، بل أن يمارس إنسانيّته في إعانة خصمه على التحرّر من رواسبه المنحرفة، ثمّ الأخذ بيده إلى طريق الحقّ والصواب.

٨. تجاوز العصبيّة

أن لا ينطلق الخطاب من أفكار مُسبقة لا مجال لنقدها: عقلانيّة الخطاب أو الحوار تفرض أن لا تنطلق من أفكار مُسبقة لا يمكن التنازل عنها، أو مجرّد مناقشتها، وبعبارة أخرى أن لا تتعصّب لقناعاتك، ولا تلجأ لفرضها على الآخر، على أساس أنّها الحقيقة المطلقة، في هذا الإطار تدخل مع الآخر في جدل عقيم لا جدوى منه كما أشرنا.

الموقف السليم يفرض أن تكون على مسافة واحدة من الرأيين، لتنطلق إلى الحوار الإنساني الهادئ المَرِن، الذي يعتمد الدليلَ أساساً مستحضراً موقف النبيّ ﷺ في حواره مع المشركين: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٢٤]. فالنبيّ ﷺ وهو الحقّ المطلق لم يعطِ نفسه صفة الهدى، ولم يدمغ خصومه بصفة

الضلال، بل تَرَك المجال لمعالجة الموضوع أن يتحرّك بحرّية، كأمر قابل للأخذ والردّ، وهذا من شأنه أن يمزّق الهالة القدسيّة التي تتركها المعتقدات في نفوسهم.. إنّ مثل هذا الموقف يمثّل روح الحياد الفكريّ حيث يطلق المُحاوِر الفكرة في دائرة الاحتمال، الذي يساوي بين فرضيّة الخطأ والصواب أو الهدى والضلال، ليتقدّم إلى الآخرين بروحيّة الباحث عن الحقّ في نطاق الفكرة[١].

على ضوء هذا نفهم أنّ حركة الحوار في الإسلام ترتكز على أساس القاعدة العلميّة التي ترى في الشكّ طريقاً إلى اليقين، وعلى الأسلوب الذي يعتمد على تفريغ الموقف من الأفكار المُسبقة التي تحوّل الموقفَ إلى عقدة تفرض نفسها على كلّ مواطن الحوار[٢].

حتّى أنّ تطوُّر مسار الحوار، وَفْقَ رأيّ السيّد، قد يفرض علينا التنازل عن بعض قناعاتنا، فيما إذا أثبت الآخر بُطلانها، لتكن لدينا الشجاعة بالقول: كنّا مُخطِئين في هذا الأمر، ومعك حقّ، وعلى هذا فنحن نتبنّى رأيك... هذا هو الموقف الصحيح الذي يجعلك تقترب من الآخر، ويقترب هو منك، ويطمئنّ لعدلك، فيعيش موضوعيّتك ليبادلك الموقف ذاته.

وفي هذا المجال يحذّر السيد أكثر ما يُحذّر من العصبية، فتراه يقول:

حذارِ من التعصّب الذي ينطلق من خلال العبودية لمن تتعصّب له، والحقد على من تتعصّب ضدّه. العصبيّة نقيض الموضوعيّة والعقلانيّة، إنّ معنى أن تتعصّب، هو أن تُغلق عقلكَ وقلبَك عمّا لدى الآخر... ومعنى أن تتعصّب، هو أن لا تعتبر للآخر أيّ حقّ في أن يفهم القضايا بغير طريقتك، وأن تعتبر أنّك وحدك الذي

---

(١) من وحي القرآن (م.س) ج: ص٤١ ـ ٤٢
(٢) الحوار في القرآن (م.س) ص (٥٥ ـ ٥٦)

يملك الحقيقة المطلقة، ومعنى ذلك أنّك تختصر الإنسانية في شخصك[١].

«المتعصّب إنسانٌ أعمى لا يفكّر بما يلتزم به من موقعٍ وعقلٍ وعلم، ولا يقيس الأمور بمقياس الحجّة والبرهان، بل يقيسها بمقياس الانفعال والعصبيةً المختزنة داخل النّفس»[٢].

التعصّبُ التزامٌ بفكرة ما دون أساسٍ علميٍّ أو اقتناع بالحجّة والبرهان، وهذا ما يجعلُك تختنقُ في دائرة ما تؤمنُ به، فتكون عدوانياً تجاه الآخر: «**إنّ العصبيّة التي يأثم عليها صاحبها، أن يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين، وليس من العصبيّة أن يحبّ الرجل قومه، ولكن من العصبيّة أن يُعين قومَه على الظُّلم**»[٣].

ويعلّق السيّد على العصبيّة كحالة مَرضيّة فيقول: «نحن في الشرق عاطفيّون، وليس سلبياً أن تكون لك عاطفة، بل السلبيّة أن لا تكون لك عاطفة، لأنَّ اللّه يذمّ قسوة القلوب، لكنّ المسألة هو أن تتحوّل العاطفة التي هي مجرّد نبضة قلب، وخفقة إحساس.. إلى عصبيّة تتحجّر فيها القلوب والأحاسيس، هنا تصبح حالةً صنميّة، فيتحوّل من متعصّب له إلى صنم يعبده».

وهنا يميّز السيّد بين مفهومَيّ العصبيّة والالتزام فيقول: «التعصّب أعمى، والالتزام مُبّصِرٌ، التعصّب يُغلق العقل والقلب على الآخر، والالتزام ينفتح فيه على الآخر حتى لو اختلف معه[٤]».

(١) الندوة (م.س) ج١٢: ص(١٥ ـ ١٦)
(٢) بيّنات (م.س) ص٢٠٩
(٣) الكافي: ج٢، ص ٢٠٨
(٤) الندوة (م.س) ج ١٢ ص (١٥ ـ١٦)

٩ ـ آداب الحوار

أن يتمّ الالتزام بالآداب الحواريّة المعتبَرة: وحتى يجري الخطاب الإسلاميّ في أجواء أخلاقيّة هادئة تسمح بحرّية التفكير، وموضوعيّة العرض، على المُتحاورين احترام الضوابط التالية:

ـ أن تُصغي لحديث الآخر بانتباهٍ وتركيزٍ، لتفهم وتُحاور عن وعيٍ.

ـ أن تَحذر مقاطعتَه، لتفسح له المجال بأن يعبّر بحرّية.

ـ أن تحترم الآخر فتتجنّب أساليب التعجّب والاستغراب والدهشة... التي توحي بالسخرية والاحتقار والجهل.

ـ أن تقبل النقد دون غضب، وتتنازل عن رأيك إذا أثبت الآخر خطأه.

ـ أن تحتاط في صيغة خطابك مع الآخر، فتحذر لغة التكفير والسباب، التي تستفزّ عنفوانه، فتغلق عقله، وينطلق ليثأر لآرائه على أساس أنّها تعادل كرامته وكلّ كيانه.

ويتوقّف السيد طويلاً أمام لغة السُّباب والشّتائم المُتداولة، والتي تحوّلت إلى ظاهرة عباديّة يتمسّك بها المتخلّفون والمتعصّبون من أتباع المذاهب، والتي ساهمت في تفكيك عُرى الوحدة بين المسلمين وغيرهم، ويحرّم السيّد هذا التوجّه المَرضيّ انطلاقاً من نصوص دينيّة ومواقف تاريخيّة.

فمن النصّ الدينيّ، يختار سماحته هذه الآية: ﴿وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ..﴾ [الأنعام: ١٠٨]

ليرى فيها تعبيراً عن معادلةٍ قرآنيةٍ واضحة الدلالة تعلمنا كيف نتعامل مع من

نختلف معهم في العقيدة أو السياسة أو السلوك... وتحذّرنا من استخدام لغة السُّباب. وهنا علينا أن نسأل أنفسنا ما الفائدة من استخدام لغة السُّباب؟

هل تربح بها عقلاً؟... أو تهدي بها إنساناً؟...

عندما تتناول مقدّسات الآخر، فإنّك تتحدّاه، لتزيده تعصّباً، من خلال جَرْحِك لكبريائه وعنفوانه ليبادر إلى ردّ الإساءة بمثلها، ممّا يوتّر العلاقة ويقطع الحوار، وتنتهي النتيجة إلى الحقد فالعداوة وربّما العدوان... وهذا ما أراد الإمام علي عليه السلام من أصحابه أن يتلافوه ويبتعدوا عنه. فحينما سمع عدداً من عناصر جيشه يسبّون أهل الشام، وكان في ذروة صراعه معهم، قال: «**إنّي أكره لكم أن تكونوا سبّابين، ولكن قولوا مكان سبّكم إياهم: ربّنا احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالتهم، حتى يعرف الحقّ من جهله، ويرعوي عن الغيّ والعدوان من لهج به**»[١].

وعلى هذا الخط، يحدّد السيد سِمات المجتمع الذي يريده: إنّه مجتمع الكلمة الطيّبة، لا الكلمة الخبيثة، فهي الطّريق الأسهل إلى عقول الناس، فأسلوب العنف والتحدّي والسُّباب هو أسلوب الفاشلين الضّعفاء الذين يفتقرون إلى الدليل الذي يُسكِت أو يُقنِع...المهم هو أن ننطلق في خطابنا بكلمات الحبّ والإخلاص، أن تصدر من القلب لتحطَّ في القلب الآخر، الآخر الذي يجب أن يشعر بأنّ دورنا في الحوار هو دور الأخ الرفيق الناصح الباحث عمّا ينفعه ويُريحه ويُسعده، هذا الآخر حتى لو كان طاغية كفرعون.

في هـذا الإطـار ورد في القـرآن الكريم أَمْـرُ الله تعالى إلـى موسى عليه السلام وأخيـه هـارون عليه السلام: ﴿**اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولاَ لَهُ قَـوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَـى**﴾ [طـه:٤٣-٤٤].

(١) نهج البلاغة الخطبة ٢٠٦

لقد كان السيّد يرى أنّ ابتعادنا عن لغة الحبّ والرِّفق والنّصح في الحوار جاء في أكثر الأحيان من استغراقنا في صراعات التاريخ وأحقاده، لذا كان يقول: لا تحوّلوا التاريخ إلى عبءٍ ثقيلٍ على الحاضر، ادرسوه، استفيدوا من تجاربه، خذوا العبرة من نتائجه، لتنطلقوا إلى الحاضر بروحيّة البناء، وإلى المستقبل بذهنيّة التخطيط، والجميع في النهاية سيقفون أمام الله تعالى، ليحدّد جزاءهم ومصيرهم: ﴿**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾ [البقرة:١٤١].

وكان يعتبر أنّ مشكلتنا تنطلق من تربية غرائزيّة، تركّز على أحقاد الماضي لتثير الحساسيّات، وتفعّل القبليّات، وتوتّر العلاقات، وتحفّز الهمم على الثأر والانتقام. وبالأخصّ بين أبناء الوطن الواحد، والدين الواحد، وربّما المذهب الواحد.

وفي الختام، يمكن التوقّف عند نموذجٍ أحبَّهُ السيد، وكان يختاره كمصداق لتقديم خطاب إسلامي ناصع ومُشرق حتىً في أسوأ الظروف والأحوال، والنموذج هو الإمام جعفر الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ، والظرف حواره مع الزنادقة: «جاء في الروايات أنّ ابن أبي العوجاء وابن طالوت وابن المقفّع وبعض الزنادقة قد اجتمعوا في موسم الحجّ بالمسجد الحرام، والإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ فيه يوم ذاك، وقد اجتمع عليه الناس يُفتيهم ويجيب عن مسائلهم بالحِجج والبراهين، فقال القوم لابن أبي العوجاء: هل لك في تغليظ هذا الجالس، وسؤاله عمّا يفضحه عند هؤلاء المحيطين به، فقد ترى فتنة الناس به. فأجابهم: نعم.ثمّ تقدّم نحوه وقال: يا أبا عبد الله، أفتأذن لي بالسؤال؟ فقال له الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ: **سَلْ ما شئت**.

فقال: إلى كم تدوسون هذا البيدر (مكان الطواف)، وتلوذون بهذا الحجر (الحجر الأسود)، وتعبدون هذا البيت المرفوع بالطوب والمدد، وتهرولون حوله هرولة البعير إذا نفر، مَنْ فكّر في هذا وقدّر، عَلِمَ أنّه فِعْلٌ غيرُ حكيم، ولا ذي نظر.

فقال له الإمام الصادق عليه السلام: **«إنّ من أضلّه الله وأعمى قلبه، استوخَمَ الحقّ ولم يستعذبه، وصار الشيطان وليّه... هذا بيتٌ استعبد اللهُ به خلقَه، ليختبر طاعتهم في إتيانه على تعظيمه وزيارته، وجعله قِبلة للمصلّين له، فهو شعبة من رضوانه، وطريق يؤدّي إلى غفرانه».**

فقال له ابن أبي العوجاء: ذكرت يا أبا عبد الله، فأحلت على غائب.

فقال له الإمام عليه السلام: **«كيف يكون _ يا ويلك _ غائباً مع مَنْ هو مع خلقه شاهد، وهو أقرب إليهم من حبل الوريد، يسمع كلامهم، ويعلم أسرارهم، لا يخلو منه مكان، ولا يشغل به مكان، ولا يكون إلى مكان أقرب منه إلى مكان، تشهد بذلك آثاره، وتدلّ عليه أفعاله».**

فسكت ابن أبي العوجاء ولم يدرِ ما يقول، وانصرف من بين يديه، وقال لأصحابه: سألتكم أن تلتمسوا لي خمرة فألفيتموني في جمرة.

فقالوا له: اسكت، فوالله لقد فضحتنا بحيرتك وانقطاعك، وما رأينا أحقر منك اليوم في مجلسه.

فقال: إليّ ما تقولون هذا، إنَّه ابن من حلق رؤوس مَنْ ترون، وأومأ بيده إلى أهل الموسم (الحَجيج).

وعلى المنهج نفسه يعلّمنا القرآن الكريم، والإمام الصادق عليه السلام وهو تلميذ القرآن، أن نستخدم في حوارنا مع الآخر الوسائل النّظيفة مهما كانت النتائج، إذ لا يجوز أن نلجأ إلى مبدأ «الغاية تبرّر الوسيلة»، فنستعين بالأفكار الباطلة، أو الجدال بالباطل لنقضي به على مقاومة الخصم: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت:٤٦]:

﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُواً﴾ [الكهف:٥٦].

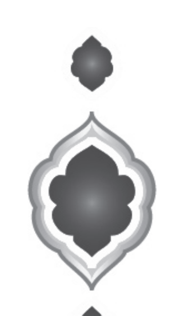
وفي وصيّة للإمام الصادق عليه السلام وهو يسمع حوار أحد أصحابه: «**لا تمزج الحقّ بالباطل، وقليل الحقّ يكفي عن كثير الباطل**»[١] ، إنَّ الموقف لا يمثّل صراعاً بين فئتَين يريد أحدهما أن يتغلّب على الآخر، ليحشد على ضوء ذلك كلّ ما يملكه من أسلحة سواء كانت حقّاً أو باطلاً، ليكسب المعركة بالغلبة.

إنّ المؤمن لا يتعقّد من الهزيمة إذا ثبت الحقّ في الطرف الآخر، إنّه مع الحقّ الذي يملكه الخصم في نطاقه الخاص، بنفس القوّة التي يكون فيها ضدّ الباطل الذي يعيش في حياتنا في بعض لحظات الانحراف.

الحوار يجب أن يدور ما بين أدلّة، لا بين غرائز.

---

(١) البحار ج٩/ص ٣٠٩.





المنهج التجديدي عند السيّد محمد حسين فضل الله قدس سره

سماحة الشيخ علي مرعي



بحثٌ علميٌّ كتبه مدير المكتب الشرعي

في مؤسّسة السيّد قدس سره

بتاريخ ٣/٢/٢٠١١

لقد توالت رسالات الرُّسل على مدى سنواتٍ طويلة، وكانت تتطوّر مع تطوّر المجتمعات فكرياً واجتماعياً، وكان المبدأ الأساس لكلّ رسالة معالجة مشكلات المجتمع الذي أُنزِلت فيه، والتأسيس للمرحلة اللاحقة للمجتمع والتمهيد للرسالة القادمة. وهذا يعني أنّ كلّ رسالةٍ لم تكن تنظر للماضي إلا من أجل العِبرة، ولم تكن تتجمّد في الحاضر وتستغرق فيه إلى حدّ استهلاك كلّ قدرات الرسول وأتباعه، إنّما كانت تأخذ من الماضي العِبرة، وتتعامل مع الحاضر لتعالج مشاكله، وتؤسّس للمستقبل ليكون مستقبلاً ناجحاً وغير مَرَضيّ.

التاريخ و السلطة عدوّا الرسالة

وعندما ننظر إلى مجتمعات الرُّسل ولا سيّما من جهة معارضي الرسالات ورافضيها، فإنّنا نجد أنّ هناك رفضاً من الطبقة الحاكمة في أغلب الأحيان، ومن قسم من عامّة النّاس، أمّا أفراد الطبقة الحاكمة فإنّهم يرفضون الرسالات لأنّهم يشعرون بأنّهم سيخسرون سلطتهم ولا سيّما عندما يكونون متسلّطين على رقاب الناس بطريقة ظالمة. وما يهمّنا أكثر هنا أن نلاحظ معارضة عامّة الناس للرسالات، وسبب هذه المعارضة، أنّ قسماً من هؤلاء كانوا أتباعاً لحكّامهم دون تفكير أوتأمّل. والبعض الآخر كان مستغرقاً في الماضي، إن من جهة الاعتقاد أو من جهة العادات والتقاليد، والتي قد تصل إلى حدّ الاعتقاد بها وكأنّها وحيٌ مُنزل. فكثيراً ما نسمع إجابة الناس للمُرسَلين ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[الزخرف:٢٢]. ولم ينظروا هل أنّ آباءهم على حقّ أم على باطل.

وهذا الاستغراق في ماضيهم جعلهم ينسون التخطيط للمستقبل، وكأنّ ذلك لا يرتبط بهم من قريب أو بعيد، وجعلهم يعتقدون أنّ ما يأتي به الأنبياء هو ضربٌ من الخرافة ومخالف للمنطق، وهو في الحقيقة يُخالف واقعهم الذي يعيشون فيه بحيث لم يفكّروا في لحظة من اللّحظات بالمنطق الذي دعا إليه رسول الله ﷺ: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[سبأ : ٢٤]، بل كان تفكيرهم دائماً أنّهم هم على حقّ وأنّ ما جاء به الأنبياء هو الباطل، وهذا الأمر يظهر جلياً مع رسول الله ﷺ ومع مَنْ كان في زمانه من الجاهلين.على أنّ ما تميّز به رسول الله ﷺ أنّه كان خاتم الأنبياء، وهذا يعني أنّ رسالته هي خاتمة الرسالات، وعليه فإنّ ما جاء به رسول الله ﷺ لا بدّ أن يستمرّ إلى آخر الزمان، و أن يُعالج مشاكل المجتمعات التي عاصرت نزول الرسالة والمجتمعات التي ستأتي بعد ذلك مهما امتدّ الزمان، ومهما تواجد بشر على هذه الأرض، وتطوّرت المجتمعات، وتقدّمت العلوم والأفكار الاعتقادية والاجتماعية وغيرها، ومن هنا، فإنّ الرسالة لا بدّ أن تتناسب مع جميع المجتمعات ومختلف الظروف التي يعيشها الناس مع المحافظة على المبادئ الأساسية للرسالة.

الفهم الجديد للإسلام

وعلى هذا الأساس جعل اللهُ تعالى رسالةَ النبي ﷺ مُتجسّدةً في القرآن الكريم بشكل أساسيٍّ والذي كان يُمثّل المعجزة الكبرى التي ضَمِن الله تعالى حفظها ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[الحجر:٩]، لأنّ في حفظها حفظاً للدليل على نبوّة النبيّ محمد ﷺ وحفظاً للرسالة التي جاء بها لتستفيد منها البشرية على مرّ العصور، ولذلك نلاحظ أنّه في كلّ عصر يختلف فهم الناس للقرآن ومعانيه، مع اعتقاد الناس أنّ ما فهموه هو الواقع وهو الفهم النهائي الذي لن يتغيّر، وهو الفَهم المُناسب للعصر الذي يعيشون فيه. وهذا الخطأ الكبير الذي وقع فيه أكثر النّاس بل وقسم كبير من

العلماء والمفسّرين، جعلهم يجمدون في الواقع الذي يعيشون فيه وينسون المستقبل وما يجب أن يخطّطوا لهذا المستقبل.

وعلى هذا الأساس كان دور أئمّة أهل البيت عليهم السلام الذين اختارهم الله تعالى ليكونوا سنداً للأمّة وطريقاً ليفهم الناسُ الإسلام على حقيقته، وأنّه ليس لعصرٍ واحد إنّما لجميع العصور، وذلك عبّر عمّا أوضحوه في أعماق الآيات والأحاديث من دلالات تعالج مشكلات العصر الذي يعيشه الناس والعصور التي ستأتي. وحيث إنّ هذا الدور يصعب فَهمُه على الكثيرين، كان لا بدّ من وجود الأئمّة الذين فهموا الإسلام على حقيقته ونهلوه من مصدره الأساسي ومنبعه الصافي، والمؤسف أنّه عندما كان أيّ إمام يُلمِّح إلى حقيقة أنّ الإسلام يجب أن لا يتجمّد عند الحاضر و أن لا يتوقّف عند ما فهمه السابقون، كما كان يفعل أمير المؤمنين عليه السلام عندما يقول: «**سلوني قبل أن تفقدوني فإني بطرق السماوات أعلم مني بطرق الأرض**»، نجد أنّ الجمود الفكري يجعل أحدهم يسأله عن عدد شعرات رأسه ولحيته. هذا المناخ هو الذي جعل الناس يتعاملون بسلبيّة مع كل مَنْ يأتي بفهم جديد للإسلام بما يتناسب مع المستقبل، بل بما يتناسب مع الحاضر، وذلك بعد اكتشاف الخطأ في فهم السابقين.ونحن عندما نتحدّث عن فهم جديد للإسلام لا نتحدّث عن طرح إسلام جديد، لأنّ الإسلام لا يتجدّد، إنّما فهمناً للإسلام هو الذي يتجدّد فالإسلام واحد لأنّه هو الحقّ، والحقّ واحد على مرّ الزمان، والباطل هو المتعدّد: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾[الأنعام:١٥٣]، والصراط المستقيم هوالسبيل القويم الذي لا يتغيّر، لأنّه حقّ من عند الحقّ.

وفي هذا السياق، فإنّ أيّ عالمٍ مجدّدٍ حين يطرح فهمه الجديد للدين مستنداً إلى المنابع الأصلية، يشعر ضعاف العقول والنفوس وأصحاب المصالح الدنيوية أنّ الطرح الجديد سيؤدّي إلى إلغاء ما فهموه وما توقّفوا عنده من الفهم الذي

علق في أذهانهم من الماضي، وهذا بنظرهم إلغاء للدين وللحقّ، ولذلك نرى بعض الناس وبعض المُدّعين للعلم يهاجمون من يحاول التجديد ويتّهمونه بمختلف الاتهامات من أنّه صاحب بدعة أو خارج عن مبدأ الحقّ، أو مُخالف للمشهور من العلماء، وغير ذلك من الاتهامات التي تجعل الناس يقفون موقفاً سلبياً من مثل هؤلاء المجدّدين.

والأمر نفسه ظهر جليّاً عندما حاول أصحاب الرسالات أو العقول المنفتحة حذف ما أدخله الجهلاء على الدين من خرافات وتحريفات نتيجة تأثرهم بفلسفات معيّنة أخرى فضحوا أضاليلهم الهادفة إلى السيطرة على الناس من خلال الدين، و ذلك حفظاً لنقاء الدّين و صفائه و انسجامه مع الفطرة و العقل القطعي و المصالح الإنسانية.

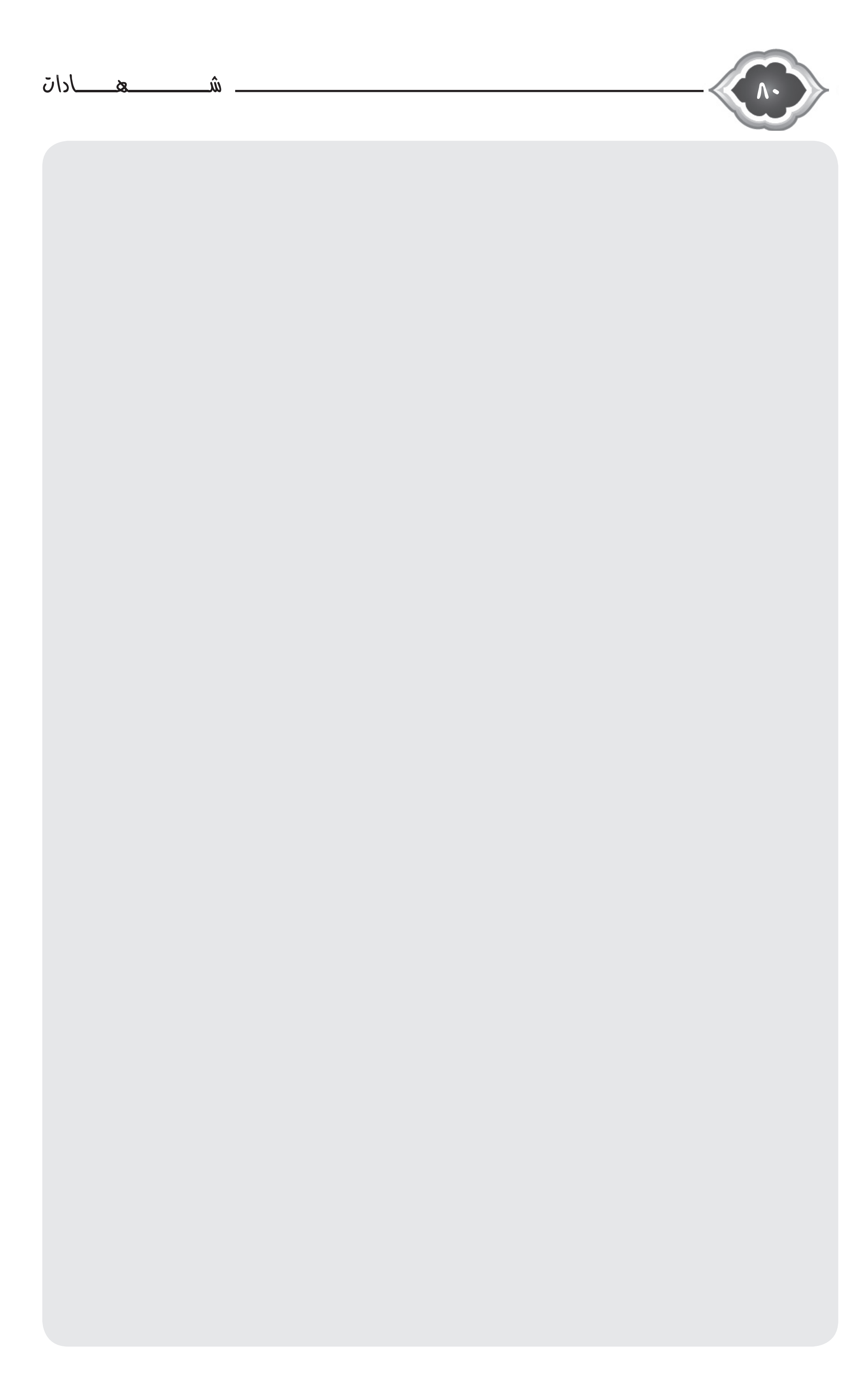
الفرق بين البدعة والتجديد

وهنا وقبل الدخول في التفصيل، لا بدّ لنا من فهم الفرق بين البدعة والتجديد، فالبدعة هي إدخال شيء على الدين ليس من الدين، بمعنى أن يُفتي إنسان بفتوى أو يقول بأمرٍ تاريخيٍّ أو عقائديٍّ أو فكريٍّ وليس هناك أيّ دليل عامّ أو خاصّ على ما أتى به، أو يأتي بشيء قام الدليل على خلافه. فمن يفتي مثلاً باستحباب صلاة لم يرد أيّ حديث صحيح عن أيّ معصوم على استحبابها فهذه بدعة، وعندما نرى أنّ الدليل القطعي قام على عدم صحّة الجماعة في النافلة إلا صلاة العيد وصلاة الاستسقاء فمن قال بصحّة الجماعة أو استحبابها في أيّ صلاة غير هاتين فإنّ هذه بدعة حتى لو سمّاها البعض بدعة حسنة. وقد ثبت في الأثر الشريف القطعي المُتّفق عليه أنّ «**كلّ بدعة ضلالة وكلّ ضلالة في النار**».

أما بالنسبة للتجديد فهو أن يأتي المُجدّد بأمر جديد مُستنداً إلى القواعد الدّينيّة

والقوانين الأساسية المُتسالَم عليها بين أهل العلم والخبرة، وهذا الأمر قد يكون من الأمور العلمية العامّة، وقد يكون في الأمور الفقهية الاجتهادية وقد يكون أسلوباً من أساليب الدعوة لدين الله تعالى، وهو حاصل قطعاً في الاختراعات العلمية العامة، وما يهمنا هنا هو التجديد في مجال الفقه والدين بشكل عام. فإنّ العالِم قد يجدّد في أسلوب الدعوة ولكن عليه الالتزام بأُسُس الدعوة التي تركّز أنّ على الداعية أن لا يخرج عمّا ذكره تعالى في كتابه المجيد في قوله لرسوله ﷺ: ﴿وَادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[النحل:١٢٥]، فإذا ابتكر أحد العلماء أسلوباً جديداً في الدعوة على أساس هذه الآية فهو مُجدّد وإذا خرج عن هذا الأساس فهو مُبتدعٌ أو مفترٍ على الدين، هذا عدا عن الأمور الأخرى اللازمة للداعية في أسلوب دعوته. وهكذا الحال بالنسبة للفقيه فإنّه إذا أراد التجديد في الفتاوى فإنّ أيّ فتوى جديدة لا بدّ أن تكون مُعتمِدة على الدّليل الشرعيّ، ولا يجوز أن تكون بأيّ حالٍ من الأحوال معتمِدة على قناعات المفتي الشخصية دون دليل أو برهان، وإلا فإنّه يكون قد دخل في عالم البِدعة والافتراء على الدّين.

ولفهم هذا الأمر بشكل أفضل لا بدّ من توضيح عدّة أمور أساسية ترتبط بالاستنباط والفقه، و في الخصوص أمور الاجتهاد و التقليد.



الاجتهاد والأدلّة الشرعيّة

الاجتهاد هو بذل الجهد للوصول إلى نتيجة ما، وهذا الجهد قد يكون جسديّاً وقد يكون فكريّاً أو عقليّاً، هذا بحسب اللّغة العربية، أما بحسب المصطلح الفقهيّ فهو بذل جهدٍ فكريٍّ لاستنباط الحكم الشرعي من المدارك المقرّرة له، بمعنى أنّ المجتهد يقوم بدراسة الأدلّة الشرعيّة التي قرّرها الشارع للوصول إلى استخراج الحكم الشرعي منها، ويستعمل هذه الأدلّة بالطريقة المقرّرة شرعاً، وتكون نتيجة ذلك استنباطه أو استخراجه للحكم الشرعي في أيّ مسألة من المسائل.

فالأدلّة الشرعيّة المقررة هي المصادر المحدّدة في الشرع لاستخراج الحكم، وهي بشكل أساسي: القرآن الكريم، والسُّنّة الشريفة، ويُضاف إليها عند الشيعة الإمامية الإجماع والعقل لكن ضمن شروط محدّدة يأتي ذكرها، ولتوضيح ذلك نتوقف باختصار عند كلٍّ منها:

أ. **القرآن الكريم:** وهو غنيّ عن التعريف، فهو الكتاب والوحي الذي أُنزل على رسول الله ﷺ طوال فترة دعوته لدين الله تعالى، والتي استمرّت ثلاثةً وعشرين عاماً تقريباً، ومن المتّفق عليه أنّ ما هو موجود في أيّامنا هذه في المصحف الشريف هو نفسه ما أُنزل على رسول الله ﷺ لم يزد عليه أو ينقص منه شيء، وكلّ دعوى خلاف ذلك فهي دعوى باطلة لا يُؤخذ بها، والقائل بالزيادة أو النقيصة مُخالف لاتّفاق المسلمين باختلاف مذاهبهم وآرائهم. والقرآن الكريم قد

تضمّن جوانب عديدة من الفقه والعقيدة والتاريخ والأخلاق وغير ذلك، وقد بلغ عدد آيات الأحكام الشرعية حوالي خمسماية آية والباقي يتحدّث عن مواضيع مختلفة، وإن كان بعض هذه الآيات الأخرى قد يُستفاد منها في عملية الاستنباط بطريقة أو بأخرى.

أمّا آيات الأحكام، فمنها ما ذُكرت أحكاماً مجملة وموجزة كما في آيات الصلاة أو الخُمس أو الزكاة، ومنها ما أعطت تفصيلاً أكبر كما في آيات الميراث الواردة في سورة النساء، ومنها ما تكون خاصة بموردها ولا يمكن تعميمها لموارد أخرى، ومنها ما تفيد حكماً في موردها، ولكن من الممكن أن نستفيد منها قاعدة عامّة قد تفيدنا في موارد أخرى، فعندما يقول تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾[الإسراء:٧٨]، فإن هذه الآية تُفيد تحديد مواقيت الصلاة الواجبة، ولكن لا يمكن الاستفادة منها في مجالات أخرى كأحكام الصيام أو وقته أو غير ذلك، أما عندما يقول تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا..﴾[البقرة:٢١٩]. فإن هذه الآية عندما تذكر أنّ الإثم والضرر في الخمر والميسر أكبر من المنافع، فإنّ هذا يؤدّي إلى الحكم بحرمة الخمر والميسر، ويمكننا أن نستفيد من ذلك أنّ كلّ ما يكون ضرره أكبر من نفعه فهو حرام، ولو لم يكن خمراً أو ميسراً، وهذه قاعدة عامّة أكّدت عليها هذه الآية المُباركة ولو بشكلٍ غير مُباشر.

ب. السُّنّة الشريفة: وهي عند علماء الشيعة تشمل سُنَّة المعصومين الأربعة عشر، وهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والسيدة الزهراء عليها السلام، والأئمّة الإثنا عشر عليهم السلام، والسُّنّة تتضمّن أموراً ثلاثة، هي قول المعصوم و فِعْلُه و تقريره.

فقول المعصوم عليه السلام وهو ما ورد في كتب الأحاديث، وبعبارات تشير إلى قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أوالسيدة الزهراء عليها السلام أو الإمام عليه السلام، وهو ما يُسمّى بالحديث

الشريف والذي لا بدّ أن يكون ثابت الصدور عن المعصوم عليه السلام حتى نعتبره سُنَّة ومصدراً من مصادر التشريع.

و نقصد بفعل المعصوم ما ورد في بعض الروايات عن أحد المعصومين أنّه قام بعمل معيّن حتى لو لم يقل شيئاً عن هذا العمل، فعندما يُذكَر أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يسوك أسنانه بعود الأراك (السواك) قبل الوضوء أو قبل الصلاة وأنّه كان يُحافظ على ذلك بشكل دائم، فإنّ اعتقادنا أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم معصوم لا يفعل الحرام بل لا يفعل المكروه وثبوت أنّه كان يستعمل السواك دائماً حتى لو لم يرد أيّ حديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم باستحباب استعمال السواك، فإنّنا نفهم أنّ استعمال السواك من الأمور المشروعة في ديننا وهذا يكون نوعاً من السُّنّة.

أما المقصود بتقرير المعصوم عليه السلام فإنّه إذا صدر فعلٌ من أحد أصحاب المعصوم على مرأى ومسمع من المعصوم، والمعصوم قادرٌ على الأمر والنهي وتبيان الحكم من دون تقيّة أو أيّ مانع آخر و قد سكت المعصوم عمّا فعله صاحبه، أو قال له: أحسنت صنيعاً مثلاً، أو أكّد عليه ضرورة الاستمرار على هذا الفعل، فإن كلّ ذلك يُعتبر إقراراً من المعصوم على عدم حُرمة هذا العمل، فيُفهَم أنّه إما واجب أو مُستحبّ أو مباح، لأنّه لو كان حراماً، فإنّه يجب النهي عن المنكر الحرام، ولو كان مكروهاً فإنّه يستحب النهيّ عن المُنكر المكروه، والمعصوم عليه السلام لا يترك واجباً أو مُستحبّاً، فسكوته أو تأكيده للفاعل على فعله، يدلّ على عدم حُرمة العمل وعدم كراهته، فيكون إمّا واجباً وإمّا مُستحبّاً و إما مباحاً وهذا ما يُسمّى بالتقرير.

فإذا ثبت لدينا بالنصّ القطعي عن أيّ واحد من المعصومين أمرٌ من هذه الأمور الثلاثة فهو يكون سنّةً، ويكون دليلاً على الحكم الشرعي.

ج . الإجماع: والمفهوم الأوّلي للإجماع هو اتّفاق الجميع على فكرة ما أو حُكم شرعي معيّن بمعنى أن يتّفق جميع الفقهاء على مسألة ما، وهذا من النادر أن يتيسّر في غير المسائل الضروريّة أي البديهيّة مثل وجوب الصلاة والصيام وتوقّف صحّة الصلاة على الطهارة وما شابه، أمّا المسائل التفصيليّة فقلّما يتّفق العلماء بأجمعهم على هذه المسائل، هذا إذا أخذنا الإجماع بمعناه اللُّغوي أو بمفهومه الأوّلي.

أما إذا أخذنا الإجماع بما عرّفه علماء الشيعة، فإنّ الأمر يختلف عن ذلك، فقد ذكر العلماء أنّ الإجماع عند الشيعة هو اتّفاق مجموعة من العلماء يكشف اتّفاقهم عن رأي المعصوم. و لذا فمجرّد الاتفاق ليس كافياً لتحقُّق الإجماع، إنّما هو اتّفاقٌ من نوع خاص ولمجموعة خاصّة من العلماء، وهم الذين يمكننا التأكيد من خلال اتّفاقهم على مسألة معيّنة أنّ هذا الاتفاق هو موافقٌ لرأي المعصوم، وذلك من جهة كونهم موجودين في عصر المعصوم عليه السلام وقد رأوه وسمعوا منه، بل في بعض الحالات قد يُذكر أسماء المجتمعين المتّفقين، ولا يُذكر اسم أحدهم بشكل يُفهم منه أنّ هذا الذي أُهمل ذكر اسمه هو المعصوم نفسه وقد توافق معهم على ما نُقل عنهم، وقد يأتي الإجماع من جهة أنّ هؤلاء العلماء قد عاصروا زمن أصحاب الإمام العسكري عليه السلام أو الإمام الحجّة عجل الله فرجه الشريف قبل غيبته، وقد نقل هؤلاء الأصحاب للعلماء رأي المعصوم، لكن لا على نحو الرواية المنقولة عن المعصوم.

ومجمل القول إنّنا عندما نرى مجموعة من العلماء كانت في عصر المعصوم أو عصر قريب من عصر المعصوم، وهم من الثُّقاة المأخوذ برأيهم، وقد اتفقوا على فتوى معيّنة ليس لها سند في كتاب الله تعالى أو في روايات أهل البيت عليهم السلام ولم تُذكر على نحو الرواية، ونفهم من ذلك أنّ هذا رأي المعصوم، فإنّنا نُسمّي ذلك إجماعاً وهو الإجماع الحُجّة الذي يُعوّل عليه في أخذ الفتوى.

د . **العقل**: إنّ ممّا وقع الخلاف فيه بين العلماء هو: هل يحقّ لنا الاعتماد على العقل مُستقلاً عن أيّ دليل آخر لاستنباط الحكم الشرعي أم لا يحقّ لنا ذلك؟ وما اتّفق عليه علماء الشيعة هو أنّ العقل مستقلٌّ عن الأدلّة الأخرى، غير أنّه لا يصلح للاستدلال به على الحكم الشرعي بالمطلق. وهذا الأمر يحتاج إلى شيء من التوضيح: ففي عملية الاستنباط للحكم الشرعي يتمّ الاعتماد على قواعد كلّية عامّة يمكن أن تدخل في أكثر من عملية استنباط واحدة، كقاعدة أنّ الأمر يدلّ على الوجوب، والنهي يدلّ على الحُرمة. فعند ثبوت قاعدة الأمر ودلالته على الوجوب، فإنّ هذه القاعدة تدخل في كلّ عملية استنباط لحكم شرعي ورد نصّ عليه في القرآن أو السُّنّة وكانت الآية تتضمّن أمراً بشيء أو الرواية كذلك، فعندما يَرِدُ قول الله تعالى ﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ﴾[البقرة:٤٣] نجد في هذه الآية أمراً من الله تعالى للمكلّفين عامّة بإقامة الصلاة بقوله: (**أقيموا**)، الذي هو فعلُ أمرٍ بإقامة الصلاة وكذلك الحال بالنسبة لإيتاء الزكاة، ولكن هل نستطيع أن نحكم بوجوب الصلاة والزكاة بمجرّد ورود هذه الآية دون الاستناد إلى أيّ شيء آخر؟ يرى العلماء أنّه لا بدّ أن نضمّ للآية القاعدة السابقة، وهي أنّ الأمر يدلّ على الوجوب، عندها نقول إنّ الأمر يدلّ على الوجوب وكلمة (**أقيموا**) هي أمر و تدلّ على الوجوب، وكذلك عندما يقول تعالى: ﴿**لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى**﴾[النساء : ٤٣] فإنّ هذا نهيٌ منه تعالى عن مقاربة الصّلاة في حالة السُّكر، ولكن ذلك لا يكفي للقول بحرمة هذه المقاربة للصلاة، بل لا بدّ من أن نضمّ إليها قاعدةً و هي أنّ النهي عن عملٍ ما يدلّ على حرمة هذا العمل. وعندها نقول إنّ مقاربة الصلاة حال السُّكر عملٌ منهيٌّ عنه فهو حرام. وهكذا الحال في كلّ أمرٍ ونهي، وإن كان هناك تفاصيلُ أخرى أعرضنا عن ذكرها للاختصار، وما ذكرناه إنّما هو للتوضيح فقط.

انطلاقاً ممّا تقدّم نقول إنّ للعقل دورَيْن في عملية الاستنباط أو استخراج

الحكم الشرعي: الدور الأوّل، هو في عملية تأسيس وإثبات القواعد الكلّية التي ذكرناها، فقاعدة دلالة الأمر على الوجوب، يدلّ عليها العقل، لأنّ العقل هو الذي يحكم بوجوب إطاعة العبد لمولاه إذا أمر المولى عبدَه بفعلٍ من الأفعال ولم يخيّره أو يرخّص له بترك العمل بما أمره به، وكذلك في مجال نهي عن عملٍ ما، فإنّ العقل هو الذي يحكم بوجوب إطاعة العبد لمولاه عندما ينهاه عن فعلٍ ما ولم يرخّصه بفعله أو يخيّره بين فعله وتركه، فيحكم العقل بلزوم ترك العبد للعمل المنهيّ عنه، وهو مُلازم لثبوت حرمة هذا العمل، وهذا الأمر يجري في كثير من القواعد التي يُبحث عنها في ما يُسمّى بكتب أصول الفقه.

أما الدور الثاني للعقل فهو يرتبط بالأمور المُستحدثَة التي لم تكن موجودة في زمن المعصومين عليهم السلام، ولم يوجد نصٌّ واضحٌ وصريحٌ يكون بمثابة الحكم، و خصوصاً حين يكون هذا الأمر المُستحدَث موضعَ ابتلاءٍ للنّاس، هنا يرجع المجتهد في استنباطه إلى قواعد فقهية عامّة ثَبَتَت في الشريعة بالدليل والبرهان من خلال النصوص القرآنية أو الواردة عن المعصومين، فيقوم العقل بدور الربط بين النصوص المناسبة والقضية المُحتاجة إلى حكم شرعيّ، و ذلك من قبيل حكم كيفيّة الصّلاة في الطائرة، فمِن المعلوم أنّه في زمن المعصومين لم يكن هناك طائرات، إنّما كانت وسائل النقل الأنعام والدواب، فإذا أراد المرجع الإفتاء في كيفية الصلاة في الطائرة ولا سيّما عندما يكون زمن السفر طويلاً بشكل يستوعب تمام وقت الصّلاة، فإنّ المرجع يأخذ بالآيات والأحاديث التي ركّزت على أهمية الصّلاة وأنّها لا تُترك لحال، ويأخذ الروايات التي تحدّثت عن صلاة المُسافر بالقصر أو التّمام، وعن جهة القبلة والصّلاة قائماً أو قاعداً بحسب اختلاف ظروف المكلّف، و يأخذ في الحسبان أنّ الصّلاة لا بدّ أن يُؤتى بها، ولا فرق في ذلك بين كون المكلّف على الأرض أو في الجوّ في الطائرة. وبما أنّ الصّلاة لها وقتٌ معلومٌ لا بدّ من الالتزام به، ولا يجوز تأجيلها إلى ما بعد خروج الوقت، وأنّه لا بدّ

للمسافر في الطائرة من الإتيان بالصّلاة في وقتها، فإن عرف القبلة صلّى إليها، وإن لم يعرفها يرجع إلى حكم الصّلاة على الأرض مع الجهل باتّجاه القبلة، وكذلك يصلّي عن قيام مع القدرة ومع العجز يصلّي جالساً، تماماً كما لو كان على الأرض. ومع الالتفات إلى ذلك كلّه، فإنّ العقل يأخذ أحكام الصّلاة العامّة ويطبّقها على الصّلاة في الطائرة.

و لو أخذنا مسألة مستحدَثة أخرى، مثل نقل عضو إنسانٍ مات حديثاً إلى إنسانٍ حيّ مريض يحتاج إلى هذا العضو، كما في عملية نقل القلب من شخص ميّت إلى حيّ، و حيث إنّ هذا الأمرلم يكن موجوداً في زمن المعصومين، ولا يوجد نصٌّ واضحٌ يدلّ على حكم عملية النقل هذه، فإنّ المجتمع يحتاج إلى معرفة رأي الشرع في مثل هذه الأمور، وهنا يأتي المرجع إلى النصّ لحسم الأمر، فيرى الأحاديث النبوية أكّدت على حرمة التمثيل بالميّت فقد ورد «**إيّاكم والمُثلَة ولو بالكلب العقور**» وشقُّ جسد الميت لاستخراج قلبه لإعطائه المريض الحيّ يُعتبر نوعاً من التمثيل، ولكنّ العقل يرى أنّ إعطاء القلب للمريض الحيّ سيؤدّي إلى حفظ حياته، فيرى العقل أنّ هناك تعارضاً بين حرمة تشريح جسد الميت ووجوب المحافظة على حياة الحيّ، ولا شكّ لدى العقل أن المحافظة على حياة الحيّ أهمّ بكثير من تشريح الميت، ولمعالجة الإشكالية يُفتي المرجع بوجوب المحافظة على حياة الحيّ مرجِّحاً ذلك على حُرمة تشريح الميّت، وهذا أمرٌ استفاده العقل من القواعد الشرعيّة العامّة. وهكذا بالنسبة إلى كثير من الأمور التي اختُرعت حديثاً ولم تكن معروفة في السابق، مثل الاستنساخ والصعود إلى الفضاء، وطفل الأنبوب، واستعمال الحاسوب وشبكة (الإنترنت) وغير ذلك ممّا يصعب إحصاؤه وحصره، ولكن يبقى الأساس في كلّ ذلك أنّ العقل لا يستقلّ في إعطاء الحكم الشرعي، إنّما يرجع إلى القواعد الثابتة من خلال النصوص القرآنية والسُّنّة القطعية، وغير ذلك لا يجوز، فلا يحقّ لأحد أن يُفتي مستنداً إلى العقل المستقلِّ عن القرآن والسُّنّة.

و بناءً على ما تقدّم، فإنّ المدارك أو المصادر التي يُعتمد عليها في استنباط الحكم هي بشكل أساسي، القرآن الكريم والسُّنّة الشريفة الثابتة عن رسول الله ﷺ وأهل بيته المعصومين عليهم السلام. أمّا الإجماع فهو مصدرٌ بما هو كاشف عن السُّنّة والعقل، و بما هو مُستنِدٌ إلى القرآن والسُّنّة، فلا الإجماع بذاته يكون دليلاً على الحكم الشرعي أو مصدراً من مصادر التشريع، ولا العقل مُستقلاً يكون مصدراً من مصادر التشريع.

التقليد و مسألتا الأعلميّة و الحياة

التقليد وهو بحسب اللّغة العربية وضع القلادة في العنق، وخاصّة في عنق الغير، فعندما نضع قلادة (أي سلسلة) في عنق شخص آخر يُقال إنّنا قلّدناه. أما في المصطلح الفقهي فقد اختلف الفقهاء في تعريف التقليد بما لا داعي للحديث عنه هنا، إنّما نقول إنّ رجوع الجاهل إلى العالم في أيّ أمر من الأمور هو نوعٌ من التقليد، وهو الذي أمر به تعالى في قوله ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً﴾[الفرقان : ٥٩] وهو ما يلزم به العقل والعقلاء، وعندما يرجع الجاهل إلى المُجتهد في الأحكام الشرعية فهو قد قلّده في ذلك، وكأنّه قد جعل أعماله قِلادةً ووضعها في عنق هذا العالِم، أي أنّ هذا المجتهد مسؤولٌ عن أعمال المكلّف أمام الله تعالى يوم القيامة. ومعنى ذلك أنّ المكلّف عندما يأتي بأيّ عمل من صلاة أو وضوء أو تيمُّم أو غير ذلك ويكون عمله مُطابقاً لفتوى مُجتهد معيّن فهو يكون مُقلِّداً في هذا العمل لهذا المُجتهد.

الأمور التي يجوز فيها التقليد

بعد بحثنا عن الاجتهاد والتقليد لا بدّ من الكلام عن الأمور التي يجوز فيها التقليد والأمور التي يحرم فيها التقليد، ففي ديننا الحنيف هناك أمور اعتقادية كالإيمان بوجود الله تعالى ووحدانيّته ونبوّة الأنبياء وعصمتهم ورسالاتهم وإمامة الأئمّة الاثني عشر ويوم القيامة وما يدخل في هذه الأمور من تفاصيل دقيقة وحسّاسة، وهناك أمور فقهية تتعلّق بأفعال المكلّفين العباديّة من وضوء وغسل وتيمّم وطهارة

وصلاة وصيام وخُمس وزكاة وحجّ وغير ذلك وهذه أيضاً لها تفاصيلُ دقيقة وكثيرة، وهناك أمور تاريخيّة تتعلّق بما حصل في الأزمنة الماضية مع الأنبياء وأوصيائهم وغيرهم، وهناك أمور اجتماعية وأخلاقية وتربوية وعلمية وغير ذلك.

أمام كلّ ذلك، فإنّ ما اتّفق عليه علماؤنا هو أنّ التقليد واجب على المكلّف غير المجتهد في الأمور الفقهية بشكلٍ خاصّ، أما باقي الأمور ولا سيّما الأمور الاعتقادية فإنّه لا يحقّ للمكلّف أن يُقلّد فيها العلماء أو المُجتهدين أو الآباء والأمّهات، إنّما على المُكلّف أن ينظر إلى هذه الأمور بتفكّر وتأمّل مع دراسته للأدلّة التي وردت على لسان العلماء وفي كتبهم، فيكون دور العلماء إرشاد المُكلّف الجاهل إلى المعتقدات الحقّة والأدلّة عليها، ويكون دور المُكلّف دراسة هذه المعتقدات ودراسة أدلّتها التي ذكرها العلماء، وإذا كان قادراً على مقارنة هذه الأدلّة مع بعضها البعض ومع ما ورد في كتاب الله تعالى وفي أحاديث المعصومين عليهم السلام فلا بدّ من ذلك، ومن الممكن للمُكلّف الدارس والمُطّلع أن يُعارض آراء العلماء، في هذه الأمور إذا تمكّن من إعطاء دليل قطعيّ من كتاب الله تعالى أو سنّة المعصومين عليهم السلام أو من العقل، أمّا أن يُعارض لمجرّد الرغبة في المعارضة دون إعطاء دليل على ما يتبنّاه من أفكار فهو أمر مرفوض، لأنّ التمسّك بالأمور الاعتقادية لا بدّ أن يُصاحبه الدليل القطعي. وعليه فإنّ دور العلماء هنا هو تبيان الأمور وأدلّتها. ودور المُكلّف هو دراسة هذه الأمور وأدلّتها وتبنّي ما يقتنع به، وإذا وجد غموضاً، فرجوعه للعلماء يكون لكشف هذا الغموض وتوضيح ما خفي. أما في الأمور الفقهية فإنّه لا بدّ للمُكلّف أن يرجع فيها إلى العلماء ولا حاجة له لمعرفة الدليل على المسائل، بل لا بدّ أن يسلّم للمجتهد المرجع بكلّ مسألة صغيرة كانت أو كبيرة، وإذا أحبّ دراسة الدليل فلا مانع ولكنه لا يكون مُلزماً بذلك، بل إذا أراد مناقشة مسألة ما أو دليلها لا بدّ أن يكون من أهل الاجتهاد أو ما يقرب من الاجتهاد ليتمكّن من تمييز الأدلّة ومناقشتها، وذلك واضح في القول المنسوب للإمام العسكري عليه السلام وللإمام الحجّة (عج)

«مَنْ كان من الفقهاء حافظاً لدينه صائناً لنفسه مُخالِفاً لهواه مُطيعاً لأمر مولاه فعلى العوام أن يُقلّدوه». فقد ذكر الإمام عليه السلام الفقهاء والعوام وذكر أنّ على العوام، أي يجب عليهم أن يقلّدوا المجتهد. فإذاً لا بدّ للمُكلّف من التقليد في الأمور الفقهية، ولا يجوز له التقليد في غير الأمور الفقهية من الأمور الاعتقادية أو التاريخية أو غيرها.

شروط الأعلميّة و الحياة

أما عن العالِم الذي يجوز تقليده، فاستناداً إلى ما ورد في قوله تعالى: ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً﴾ [الفرقان : ٥٩] أو قوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣] وغيرها من الآيات فإنّنا نرى أنّها تُلزم الجاهل بالرجوع إلى العالم،كما نشير إلى الآيات التي تُلزم العالم بتعليم الجاهل كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة:١٢٢] واستناداً إلى ما ورد من الأحاديث الشريفة كقوله عليه السلام **«فانظروا إلى رجل منكم قد روى حديثنا وحفظ حلالنا وحرامنا فاجعلوه حكماً فإنّي قد رضيته عليكم حاكماً»** إلى أن يقول **«فإنْ حكم فبحكمنا قد حكم والرّاد عليه رادٌّ علينا والرّاد علينا رادٌّ على الله وهو على حدّ الشرك بالله»** أو في الحديث الآخر المُتقدّم: **«من كان من الفُقهاء حافظاً لدينه صائناً لنفسه مُخالِفاً لهواه مُطيعاً لأمر مولاه فعلى العوام أن يُقلّدوه»**.

وفي الواقع، فإنّ هذه الآيات والروايات تشير بشكلٍ واضحٍ، وخاصّة بالجمع بين الآيات والروايات أنّ على الجاهل أن يرجع إلى العالِم، ولكن ليس أيّ عالِم، إنّما هو مَنْ حفظ أحكام أهل البيت في الحلال والحرام و عرفها، والعالم هو الفقيه، والمقصود بالفقيه المُجتهد، وبالنظر إلى قوله عليه السلام **«حافظاً لدينه صائناً لنفسه**

مُخالِفاً لهواه مُطيعاً لأمر مولاه» يُفهم أنّه لا بدّ أن يكون إنساناً عادلاً، ومعنى العدالة: أنّه يملك مَلَكَةً نفسيّة تمنعه من فعل الحرام أو تَرْكِ الواجب، فمن التزم بأحكام الشريعة إلى حدّ أنّه لا يترك واجباً ولا يفعل حراماً فهو عادل، هذا بالإجمال وقد يضيف بعض الفقهاء أموراً أخرى للعدالة كعدم قيامه بأيّ فعل مُخالِف للمروءة كالأكل في الأماكن العامّة أو الركض في الطرقات أو غير ذلك، ونحن هنا لسنا في مورد البحث في هذه التفاصيل والتعرّض لمختلف الآراء الفقهية أو مُناقشتها. فإذن المفهوم من الآيات والروايات مُجتمعة أنّ مرجع التقليد لا بدّ أن يكون مُجتهداً عادلاً، وقد أضاف الفقهاء شروطاً أخرى منها ما هو مُتّفق عليه ككونه عاقلاً غير مجنون، وكونه بالغاً ليس صبيّاً تحت سنّ البلوغ وغيرها، ومنها ما هو محلّ خلاف كالأعلمية والحياة، وهذان الأمران يحتاجان إلى شيءٍ من التوضيح.

١. **الحياة:** والمقصود كون المرجع الذي نأخذ منه الفتاوى على قيد الحياة وليس ميتاً، وهذه المسألة فيها تفصيل، فإنّ تقليد المجتهد الميّت قد يكون ابتدائياً وقد يكون بقائياً، أما التقليد الابتدائي للميت فهو بمعنى أن يرجع المكلّف بالفتاوى إلى مرجع ميت دون أن يكون قد قلّده ولو بمسألة واحدة في حياته، مع عدم الفرق بين أن يكون هذا المرجع قد توفي حديثاً وقد عاصره المكلّف فترة من الزمن دون أن يقلّده أثناءها، وبين أن يكون هذا المرجع قد توفّي قبل ولادة المكلّف بفترة زمنية قصيرة أو طويلة، ففي جميع الأحوال فإنّ تقليد المكلّف لهذا المرجع يُعتبر تقليداً ابتدائياً، أما التقليد البقائي فهو بمعنى أنّ المكلّف قلّد مرجعاً معيّناً في حياة هذا المرجع ثم توفّي المرجع في حياة المكلّف، فإنّ استمرار المكلّف في تقليده لهذا المرجع يسمّى تقليداً بقائياً.

وفي التقليد الابتدائي للميت، اختلف الفُقهاء في جواز هذا التقليد، فالأكثر على عدم جوازه، والقليل من الفقهاء القدامى والمتأخرين أفتوا بجواز هذا التقليد،

ودليل الطرفين عقليّ أكثرممّا هو نقليّ (أي من القرآن والسُّنّة)، أما التقليد البقائي فكان الاختلاف أكبر، إذ إنّ البعض حكم بجواز البقاء على تقليد المرجع الميت سواء كان أعلم من الحيّ أو غير أعلم، والبعض الآخر حكم بجواز البقاء على تقليد الميت فيما إذا ثبت عند المكلّف بطريق شرعي أنّه أعلم من المراجع الأحياء، أما إذا ثبت وجود ولو واحد من الأحياء أعلم من الميت، فإنّ هذا الفريق من الفقهاء حكموا بعدم جواز البقاء على تقليد هذا المرجع الميت، ومعنى حكمهم بجواز البقاء على تقليد هذا المرجع الميت الأعلم هو أنّ المكلّف يكون مُخيّراً بين البقاء على تقليده وبين ترك تقليده والعدول عنه إلى مرجع آخر، وهذا الفريق من الفقهاء القائل بجواز البقاء على تقليد الميت، منهم من يقول بجواز البقاء في الفتاوى التي تعلّمها المكلّف وحفظها ولا يزال حافظاً لها، أما ما لم يتعلّمه أو تعلّمه ونَسيَه فإنه لا يجوز له البقاء على تقليد الميت فيه، ومنهم من يقول بجواز البقاء في جميع الفتاوى دون فرق بين ما حفظه ولا يزال حافظاً له وبين ما لم يحفظه أصلاً أو حفظه ثم نَسِيَه في حياة المرجع أو نَسِيَه بعد وفاته، وفريق ثالث من الفقهاء قال بوجوب البقاء على تقليد الميت فيما إذا ثبت كونه أعلم من جميع المراجع الأحياء ولكنّهم اختلفوا فيما يجب البقاء فيه من الفتاوى فمنهم من قال بوجوب البقاء في جميع الفتاوى ما حفظه المُكلّف وما نَسِيَه حتى في الفتاوى التي لم يتعلّمها ومنهم من يوجب البقاء فيما تعلّمه وحفظه، أما ما لم يتعلّمه أو تعلّمه ونَسِيَه فإنّهم أوجبوا فيه الرجوع إلى أعلم الأحياء.

٢. **الأعلميّة**: بمعنى أن يكون مرجع التقليد أعلم من باقي المراجع، ومعنى أن يكون أعلم، أن يكون أقدر على استنباط الأحكام الشرعيّة من مداركها أو مصادرها، وهذا إنّما يتحقّق فيما إذا كان المجتهد أكثر إحاطة بالمدارك من جهة، فيكون مُطّلعاً على آيات القرآن الكريم عامّة وعلى الآيات المُتعلّقة باستنباط الأحكام الشرعية خاصة، وكذلك يكون لديه إلمامٌ بالسُّنّة والإجماع أكثر من غيره من

المراجع، ومن جهة ثانية يكون مالكاً للقدرة (أو ما يسميه العلماء الملكة) على تطبيق هذه المصادر على مواردها أكثر من غيره من المراجع، فهو أكثر إحاطة وأقدر على التطبيق من سواه، والواضح مما تقدّم أنّ المكلّف قد لا يتمكّن من تحديد الأعلم بين المجتهدين، لأنّ معرفة ذلك يحتاج إلى خبرة، فلا بدّ لمن يريد تحديد الأعلم أن يكون لديه حظٌّ من العِلم والاطّلاع على المدارك وكيفية الاستنباط بمستوى معيّن، ولو لم يكن قد بلغ رتبة الاجتهاد بعد، أما مَن لا يملك هذه القدرة، وليس لديه أدنى اطّلاع على هذه المدارك أو كما هو حال من لا يكون عارفاً لتكاليفه الخاصّة ولو في مجال عباداته ومعاملاته، فإنّه لا يستطيع تحديد الأعلم، ولا يحقّ له شرعاً تحديد الأعلم بل لا بدّ له من الرجوع إلى أهل الخبرة في هذا المجال.

وقد اختلف الفُقهاء في مسألة الأعلمية من عدة جهات:

الجهة الأُولى: هل هناك أعلم أم لا، فهناك من يقول إنّه لا أعلم بين المراجع إنّما لكلّ مرجع ميزة عن الباقين في جانب فقهي ما، ولغيره ميزةٌ عليه في جانب آخر، وقد شُبِّه المراجع بحديقة مليئة بالورود المختلفة، بحيث يكون لكلّ وردةٍ رائحتها ونكهتها الخاصّة بها التي تُميّزها عن باقي الورود.

و من الجهة الثانية: هناك من يقول إنّ هناك أعلم بين الفقهاء وتحديده ممكن من قِبَل أهل الخبرة، وهذا الفريق من العلماء منهم من قال بوجوب تقليد الأعلم بعد تحديده من المكلّف نفسه إن كان من أهل الخبرة أو بالرجوع إلى أهل الخبرة إن لم يكن المُكلّف من أهل الخبرة، ومنهم من قال بالاحتياط الوجوبي في تقليد الأعلم بعد تحديده و نسبة هذا الفريق أكثر من القائلين بالوجوب على نحو الجزم، ومنهم من يقول بعدم وجوب تقليد الأعلم حتى لو كان معلوماً لدينا بشخصه ومُتّفقاً على كونه أعلم من الآخرين، ومعنى ذلك أن المُكلّف

برأي هؤلاء يكون مُخيّراً في تقليده بين المُجتهدين، فيستطيع اختيار من يريد سواء كان الأعلم أو غير الأعلم. وهذان الشرطان (الحياة والأعلمية) في مرجع التقليد لم يرد في شأنهما دليلٌ في كتاب الله تعالى أو السُّنّة الشريفة بشكلٍ واضحٍ، إنّما من قال بهما أو بأحدهما إنّما كان دليله من العقل بشكلٍ أساسيٍّ أو من المشهور، وقد حاول البعض أن يستفيد دليلاً من بعض الآيات أو الأحاديث الشريفة، ورغم أنّ بحثنا هذا ليس بحثاً استدلالياً، ولكن لا بدّ لنا من الوقوف عند هذين الأمرين ولو بشكل موجز.

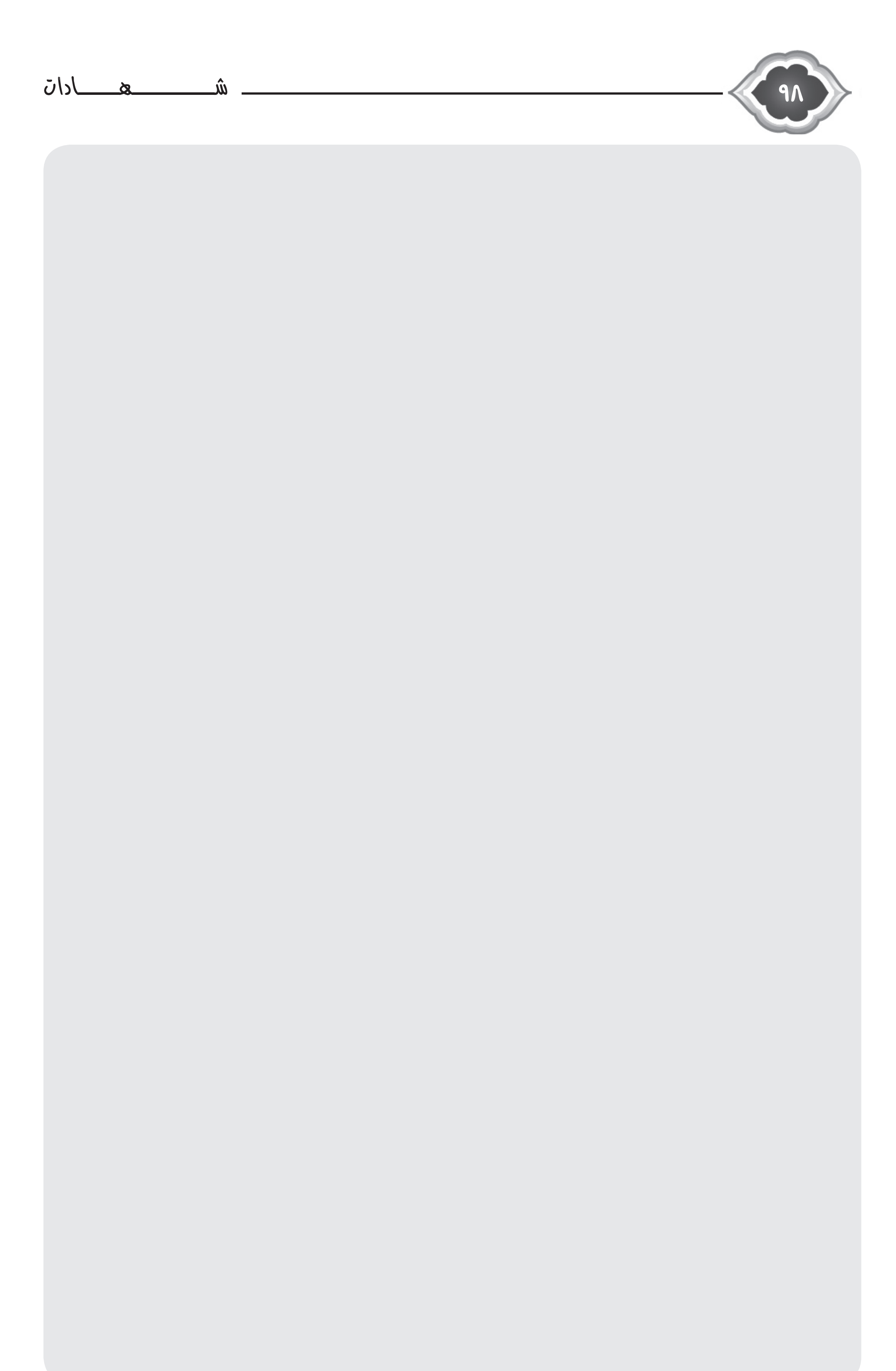
إنّ الملاحظ في كتاب الله المجيد أنّ الله تعالى يُلزِم الجاهل بالرجوع إلى العالِم: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[النحل:٤٣] و﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً﴾[الفرقان:٥٩]. وهكذا غيرها من الآيات الكريمة التي توجب رجوع الجاهل إلى العالِم ولم تتعرّض من قريب أو بعيد إلى لزوم أن يكون هذا العالِم الذي يرجع إليه الجاهل هو أعلم العلماء، بل يكفي أن يكون عالِماً، والأمر نفسه نراه في الأحاديث التي ألزمت بالرجوع إلى مَنْ حَفَظَ أحاديث أهل البيت وعرف حلالهم وحرامهم، فليس هناك من حديث يُلزِم بالرجوع إلى الأعلم، وما استدلّ به القائلون بالرجوع إلى الأعلم، هو أن الرجوع إليه يعطي اطمئناناً أكثر من الرجوع إلى غير الأعلم من جهة قوّة احتمال إصابة فتوى الأعلم للواقع، وهذا الأمر محل نقاش حيث إنّنا نرى العقلاء في الأمور العامة من علميّة وطبيّة وهندسيّة وغيرها يفضّلون الرجوع إلى الأعلم ولا يُلزمون بذلك، ولا يعيبون على من رجع إلى غير الأعلم، وبما أنّ الدليل عقليّ، فإنّ المرجع في ذلك هو العقلاء وعندما نرى أنّ العقلاء لا يعيبون على الناس بالرجوع إلى غير الأعلم من الأطبّاء والمهندسين وغيرهم من أهل الخبرة في مجالاتهم، فإنّنا نفهم من ذلك أنّ العقل لا يلزم بالرجوع إلى الأعلم حتى في الأمور الفقهية، إنّما يكفي الرجوع إلى الخبير في ذلك، أي إلى المرجع الجامع للشرائط.

أما في شرطية حياة المرجع، نلاحظ أنّ هناك رجوعاً إلى المرجع في الأمور القضائية وما يشبهها ممّا يحتاج إلى الفصل أو معالجة مسألة آنية، وهذا ممّا لا شكّ فيه من لزوم الرجوع إلى الحيّ، لأنّ الميت لا يمكن الرجوع إليه، أما في الفتاوى فإنّنا نلاحظ أنّ أكثر المراجع قد أفتوا بإمكانية البقاء على تقليد الميت فيما إذا قلّدناه فترة من الزمن ولو قليلة ولو كان ذلك بفتوى واحدة لا أكثر، هذا بصرف النظر عن قولهم بالجواز أو الوجوب. وهذا القول هو حجّة مشروعة يجوز أو يجب التمسّك به، لأنّ العبرة في الأمر بالرجوع إلى العالِم أو المجتهد هو ليس شخصه إنّما عِلمه، وهذا العلم لا يموت بموت العالِم، وإذا كانت الحجيّة هي للعِلم وليس للشخص فلا بدّ عندها من القول بإمكانية الرجوع إلى عِلم المرجع الميت (أي فتاواه) إن كان ذلك بالبقاء على تقليده بعد أن قلّدناه فترة من الزمن، أو ابتداءً فيما لو لم نكن قد قلّدناه في حياته وأردنا أن نبدأ بتقليده بعد موته، اللّهم إلا في الأمور المُستحدَثة والتي ليس له رأي فيها فهنا لا بدّ من الرجوع إلى المجتهد الحيّ.

رغم كلّ ما تقدّم نجد أنّ الكثيرين تمسّكوا بشرطَيّ الأعلمية والحياة لأمور خاصّة وليس لقوّة الدليل، مع ملاحظة أنّه في مراحل معيّنة يكون إثبات الأعلمية من أصعب الأمور إنّما لم نقل بتعذّر ذلك، حيث نجد في مثل أيّامنا هذه كثرة عدد المجتهدين الذين يملكون رسائل علمية تتضمّن فتاواهم، وأهل الخبرة إذا أرادوا إثبات أعلميّة شخص على الآخرين لا بدّ لهم من دراسة آراء جميع المراجع من الجهة الاستدلالية لا الفتوائية، وهل يتيسّر لواحد من أهل الخبرة أن يدرس آراء ما يزيد على ستّين مرجعاً موجودين في أيامنا هذه ليحكم بأنّ فلاناً من بين هؤلاء جميعاً هو الأعلم من الجميع؟ لأنّ الحكم بالأعلمية ليس عملية اختيار واحد بين اثنين أو ثلاثة، بل بين جميع من يملك شروط المرجعية والفُتيا، ولا شكّ أنّ دراسة آراء كلّ هؤلاء أمرٌ مُتعسّرٌ إن لم نقل أنّه مُتعذّر أو شبه مستحيل، لأنّه يتّصل بدراسة

الدليل الذي يستدلّ به المرجع على كلّ فتوى وليس دراسة للفتوى نفسها، وكيف نتخيّل عُمْراً يكفي لدراسة أدلّة هذا العدد من المراجع على كلّ فتاواهم، فضلاً عن المقارنة بين هذه الأدلّة لإعطاء الرأي في ذلك.

فإنّنا و بناءً على ذلك لم ندّعِ في يوم من الأيام لسماحة مرجعنا وأستاذنا سماحة العلامة المرجع السيد محمد حسين فضل الله قَدَّسَ سِرَّهُ الأعلمية، بل هو لم يدّعها لنفسه، وهنا لا أريد النقاش والتعمّق في هذا الأمر، ولكن أقول إنّ سماحته قَدَّسَ سِرَّهُ إن لم يكن أعلم من غيره فهو بلا شكّ قد تميّز عن باقي المراجِع بعدّة أمور كانت بارزة جداً في حياته بشكل يعترف به القريب والبعيد، و هذا ما نتناوله في البحث اللاحق.



مرجعية السيّد فضل اللّه(رض)
تميّزٌ و حيويّة

تميّز سماحة الفقيه المجدّد في كثير من المجالات، و لم يقتصر تميّزه في حياته على الذين عاصرهم وعاصروه، بل إنّنا نملك الجرأة للقول إنّه كان ظاهرةً مميّزةً في تاريخ المرجعية الشيعية في بعض الجوانب، وهذا التميّز عنده قدّس سرّه برز في عدة جوانب، أهمها:

١ - في المجال التبليغي

آمن رضوان اللّه عليه بالإسلام الحركيّ المُنفتِح وعَمِل وَفقَ هذا الإيمان، فيما كنّا نرى أنّ الكثير من المراجِع الذين كانوا يؤمنون بالإسلام الحركي المُنفتِح، لكنّهم كمراجِع لم يكونوا يعملون على هذا الأساس، بل كانوا يعتبرون أنّ العالِم كالكعبة يُزار ولا يزور، فكانوا يجلسون في بيوتهم أو حوزاتهم وينتظرون الناس حتّى يأتوا إليهم.

لقد تميّز قدّس سرّه ومنذ بداية حركته في النجف الأشرف أو في لبنان بعد هجرته من النجف الأشرف، بإيمانه الكبير بأنّ على العالِم مسؤولية كبيرة في نشر الثقافة الإسلامية بين الناس، وهذه المسؤولية تحتِّم عليه أن ينطلق بحركته إلى الناس في بيوتهم ومؤسّساتهم و مناسباتهم.في هذا المجال كُنّا نراه يجول على البيوت وعلى القرى لإلقاء محاضراته الفكريّة والفقهية والتفسيرية وغير ذلك، ولم يكن يتوقّف

عند كثرة الحضور أوقلّته، إنّما كان يهتمّ بالفائدة التي يمكن أن تترتّب على مثل هذه المحاضرات، والملاحظ أنّه أحياناً كان يجلس ليُلقي محاضراته على عدد محدود قد لا يصل إلى عشرة أشخاص، ولكنّ هذا العدد كان يتنامى ويزداد مع الأيّام لما يراه الناس مِنْ فِكرِ وشخصية هذا المجتهد، حتى يصل إلى المئات، ولا تعود البيوت كافية لاستيعاب عدد الحضور، فتنتقل هذه المحاضرات إلى المساجد والحسينيات.و في هذه الحالة لم يتوقّف عن التواصل مع الناس في منازلهم في المناسبات وغيرها، حتى عندما زادت انشغالاته الاجتماعية وكثُرت المسؤوليات لم يمنعه كلّ ذلك عن الاستمرار في التواصل المباشر مع الناس ولم يكن ليعتمد على مّنْ حوله مِنَ العُلماء في اللّقاء مع الناس، بل كان يصرّ على الاستماع المُباشر لمشاكلهم، و ذلك على الرغم من إنشائه لعدّة مكاتب لمُتابعة مشاكل الناس وحلّها، و هي تمتدّ من مكتب الخدمات الاجتماعية إلى مكتب القضاء مروراً بالعديد من المكاتب والمؤسسات التي تتولّى مسؤولية متابعة المشاكل مع الناس من أجل التخفيف عن سماحته نظراً لاتساع مسؤوليّاته وكثرة مشاغله.

وفي هذا المجال التبليغي نلاحظ أنّ سماحته قدس سره الذي كان ينظر إلى أنّ الإسلام دينٌ عالميٌّ، أنشأ مكتباً خاصّاً بالتبليغ ومكتباً آخر للعلاقات الخارجية: الأوّل يهتم بشؤون التبليغ والمبلّغين داخل لبنان وخارجه، والثاني يهتم بالتبليغ والمبلّغين والعلاقات العامة مع بلاد الاغتراب والمغتربين، وكذلك أنشأ معاهد شرعية في مناطق مختلفة من أجل إعداد العلماء الرساليين الذين يحملون همّ الإسلام والدعوة إليه. و قد حاول جاهداً أن تكون تنشئة هؤلاء العلماء تنشئة غير تقليدية بل حركية مُنفتحة على الجميع.ومن هذه المنطلقات وجدنا سماحته قدس سره قد وجّه خطابه وعمله وانفتاح قلبه إلى كلّ المسلمين وليس للشيعة فقط، وإلى كلّ الناس وليس للمسلمين فقط، فكان من أوائل الدعاة إلى الوحدة الإسلامية والوطنية والعاملين لها. ولذلك وجدنا كثرة مُحبّيه من غير الشيعة، واحترامه من هؤلاء ولا

سيّما المُثقّفين منهم وأساتذة الجامعات وطُلابها كان واضحاً جلياً لما قدّمه من فِكر وعِلم لجميع الناس.

وفي هذا الميدان، ميدان التبليغ و الدعوة، اعتبر سماحته أنّ الراحة حرام، و ذلك على خلفية اتّساع الهجمة على الإسلام وكثرة المُحاربين له في الداخل والخارج، ما يفرض على الداعية أن يبقى في حالة استنفار دائم، ولذلك كان سماحته قليل النوم وقليل الراحة، حتى أنّه في الأوقات التي كان لا يُحاضر فيها أو يُدرِّس أو يلتقي بالناس، كان إمّا قارئاً أو كاتباً حتى لوحظ أنّه أثناء تنقُّله بين بيروت والشام للتدريس والمحاضرات، كان في السيارة كثيراً ما يقضي وقته في القراءة أو الكتابة، بحيث لم يعد لديه وقتُ فراغ أو راحة، وبقي على هذه الحال حتّى أثناء وجوده في المستشفىإلى أن لاقى ربّه بنفسٍ مُطمئنّة راضية مرضيّة، فارتاح بعد تعبٍ طويلٍ و شديدٍ. وعندما كان سماحته يُحاضِر أو يكتب لم يكن يفعل ذلك لمجرّد ملء الفراغ من الوقت وليطلق أفكاراً مثالية لا علاقة لها بالواقع المعاش، بل إنّه كان ينظر دائماً إلى ما يحتاجه الناس في حياتهم العملية، وما يكون نافعاً لهم على مستوى دنياهم وآخرتهم، و لم يكن كلامه أو كتابته إلا بما يتناسب مع مختلف أبناء المجتمع من أصحاب الثقافة العالية أو الذين يملكون ثقافة عادية، لأنّه يعتبر أنّ عليه مسؤولية إيصال الإسلام إلى الجميع، ولذلك نجد أن قارئيه و مقلّديه كانوا من مختلف أبناء المجتمع وليس من فئة معينة.

٢ ـ تميّزه في الجانب الاجتهادي

لقد تميّز قُدِّسَ سِرُّهُ، على المستوى الاجتهادي في عدّة جوانب:

أ. **عدم التردّد في الفتوى**: أو ما يسميه البعض تحاملاً «الجرأة» على الفتوى، ولكن كلمة الجرأة يفهمها البعض بمعنى أنّه يُفتي دون مراجعة الأدلّة، وهذا ما لم يكن

موجوداً عند سماحته قدس سره، إنّما نلاحظ أنّ كثيراً من المراجع عندما يبحثون في أدلّة فتوى من الفتاوى فإنّهم يجدون أنّ الدليل يذهب في اتّجاه معيّن، ولكن المشهور يذهب في اتجاه آخر، و بسبب خوف المرجع من مُخالفة المشهور فإنّه يُفتي بما يُناسِب المشهور، وإن كان ذلك مُخالفاً للدليل الذي وصل إليه، وفي أدنى المستويات يقول المرجِع بالاحتياط الوجوبي في المسألة حتى لا يُخالِف المشهور ولا يقطع بالفتوى مُخالِفاً للمشهور، ومثال ذلك نرى أنّ المرجِع السيد الخوئي قدس سره عندما يبحث في مسألة طهارة أهل الكتاب يستعرض الأدلّة الدالة على النجاسة من آيات وروايات ويُناقش في دلالة هذه الأدلّة، ويصل سماحته قدس سره إلى نتيجة وهي أنّه ليس هناك من دليل يدلّ دلالة قطعيّة على النجاسة، إنّما يرى أن الأدلّة قاصرة عن الدلالة على النجاسة، ولكن بما أنّ المشهور يُفتي بالنجاسة، فإنّ السيد الخوئي قدس سره قال بأنّ الأحوط وجوباً الحكم بالنجاسة، والأمر نفسه نراه في مسألة ثبوت الهلال، فإنّ الأدلّة التي ذكرها السيد الخوئي قدس سره حتى في كتابه (منهاج الصالحين) تدلّ دلالة واضحة، أنّه يمكن الاعتماد على رأي علماء الفلك، ولا ضرورة للاعتماد على الرؤية البصرية، ورغم ذلك نراه لا يفتي بوضوح بجواز الاعتماد على قول علماء الفلَك.

في المقابل فإنّ سماحة السيد فضل الله قدس سره عندما وجد أنّ أدلّة نجاسة أهل الكتاب لا تثبت أمام النقد لأنّه لا دلالة للآيات والروايات على نجاستهم فقد أفتى بالطهارة، ولم يتوقّف عن الفتوى أو يتردّد فيها التزاماً برأي المشهور، إنّما أفتى بالطّهارة، لأنّ الدليل دالٌّ على ذلك. وما نشهده أيضاً مع سماحة السيد فضل الله قدس سره هو مسألة ثبوت الهلال، فإنّه قدس سره عندما رأى أنّ الدليل الدالّ على لزوم الرؤية بالعين المجرّدة لا يقف أمام النقد في دلالته، ويجد أنّ الأدلّة تساعد على الحكم بأنّه يمكن الاعتماد على قول علماء الفلَك في ولادة الهلال وإمكانية رؤيته بناءً على عناصر تتّصل بزمن الولادة وعُمر الهلال ونسبة الضوء فيه، فإنّه

قدس سره أفتى بجواز الاعتماد على قول الفلكيّين ذوي الخبرة، والذين هُم محلّ ثقة في ابتداء الصوم أو الإفطار أو غير ذلك من الأمور التي تعتمد على ثبوت بداية الأشهر القمرية، ولم يتوقّف عند قول المشهور، لأنّ المشهور معناه مجموعة من العلماء وهو من العلماء فكما يحقّ لهم أن يُفتوا استناداً لأدلّة معينة فهو وسواه أيضاً يحقّ لهم أن يُفتوا استناداً لمناقشة أدلّة المشهور والاعتماد على أدلّة أخرى أقوى دلالة على فتواهم بنظرهم، وما فعله قدس سره من الفتوى بحسب الدليل لا بحسب المزاج الشخصي والاستنساب، ما فَتَح الباب أمام كثيرٍ من المراجِع المتردّدين لحسم مواقفهم عِلماً أنّ فتاواه قدس سره لم يكن متفرّداً بها، إنّما نجد قبله مَنْ أفتى بمثل فتاواه، ولكن مرور فترة طويلة من الزمن حكم فيها رأي المشهور على آراء العلماء الآخرين أدّى إلى عدم تجرّؤ المراجِع على مخالفة المشهورحتّى لو توفّر العلم و الدليل على خلافه.

ب . **تحديد الموضوع**: إنّ ديدن المراجِع هو إعطاء الفتوى استناداً إلى الدليل ولا يقومون بتحديد موضوع الفتوى وخاصّة عندما يكون للموضوع وتحديده أثرٌ في طبيعة الفتوى،بل يعتمدون الروايات بشكل مطلق حتّى لو لم تحدّد الموضوع أو أنّها تعارضت في تحديده، ونقصد بموضوع الفتوى، هو الأمر الذي تعلّقت به الفتوى، فعندما نقول مثلاً (الصلاة واجبة) فإنّ الفتوى هنا هي الوجوب، وهذه الفتوى قد تعلّقت بالصلاة، فيُقال إنّ الصلاة هي موضوع الفتوى، وكذلك عندما نقول: (لا عدّة للمرأة اليائس) فإنّ الفتوى هنا هي نفي العدّة، وموضوع هذه الفتوى هو المرأة اليائس، لأنّ الفتوى تعلّقت بهذا النوع من النساء، أو عندما يقول المرجِع ردّاً على سؤال: هل على المرأة غسل إذا حصلت بينها وبين زوجها علاقة دون دخول وأحسّت بما تحسّ به من اللّذة مع الدخول؟ فإنّ الردّ يكون عند البعض أنّه إذا كان لها منيٌّ كمنيِّ الرجل، فإنّه يجب عليها الغسل إذا خرج منها هذا السائل، وإن لم يكن لها منيٌّ كمنيِّ الرجل فلا يجب عليها الغسل.

أما سماحة السيد قدس سره فإنّه بدلاً من أن يجعل الإجابة مردَّدة بين أمرين في كثير من المسائل التي تعارضت فيها الروايات، ولم يكن هناك مرجِّح لرواية على أخرى، فإنّه لجأ لأهل الخبرة من الأطبّاء أو غيرهم وأخذ منهم تقارير واضحة مؤكّدة بما يوجب الاطمئنان واليقين بأنّ المرأة ليس لها منيٌّ كمنيِّ الرجل، أو أنّ المرأة بالإجمال تصل إلى اليأس في سنّ الخمسين مثلاً أو غير ذلك من المواضيع التي تتعلّق بها الفتاوى. وبعد أن يتأكّد من ذلك تمام التأكد يُفتي استناداً للدليل ولتحديد الموضوع من خلال أهل الخبرة بما يوجب اليقين والاطمئنان.

ج. **مرجعيّة القرآن**: فقد جعل قدس سره القرآن المرجِع الأوّل والأساس في الفتاوى وفي تأسيس بعض القواعد الفقهية، وهذا الأمر وإن كان مطروحاً عند الفقهاء إلا أنّنا في كثير من الأحيان نجد أنّ بعض الفقهاء عندما يجدون رواية تتعارض بمدلولها مع مدلول آية قرآنية، وإن كان من الممكن حمل مدلول الرواية على مدلول الآية، فإنّهم يعكسون الأمر ويُخضِعون مدلول الآية لتتناسب مع مدلول الرواية ويُفتون على هذا الأساس حتّى لو كان هناك روايات أخرى تساعد على حمل مدلول الرواية المُعارِضة.

ولتوضيح هذه الفكرة نأخذ مِثالاً عملياً، فإنّ سماحته قدس سره لاحظ أنّ في القرآن الكريم عدّة آيات تدلّ على حليّة ما يخرج من البحر من حيوانات كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[البقرة : ١٦٨]، التي تفيد بعمومها إباحة أكل ما هو حلال و طيّب، وهذا يشمل الحيوانات البحرية التي تتّصف بهاتَين الصفتَين عند العرف العام، وكما في قوله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ﴾[الأنعام: ١٤٥]

وذلك لأنّه في اللّغة العربية عندما يأتي في الكلام نفيٌ (**لا أجد**) وبعد النفي يأتي استثناء (**إلا أن يكون ...**) فإنّ ذلك يفيد انحصار الأمر فيما ورد في الكلام، أي أنّ الحرام من المأكول هو ما ورد بعد أداة الاستثناء، وهو الميتة والدم المسفوح، أي ما ذُبح لغير اللّه تعالى أو لحم الخنزير، هذا في عموم ما في الأرض من الحيوانات البحرية وغيرها.

ثم نجد قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[النحل : ١٤] وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[فاطر : ١٢] حيث تعرّض القرآن للحديث عن البحر، وتحدّث عن أنّ الإنسان يأكل منه لحماً طرياً، و اللحم الطريّ صفة الحيوانات البحرية بالإجمال ما كان من الأسماك وما كان من غيرها وما كان من الأسماك له فلس وما لم يكن له فلس، و الكلام نفسه بالنسبة للبحرين و المقصود بهما البحر والنهر. وهذا العموم في الآيات يدلّ ـ على الأقلّ ـ بحلّية جميع الحيوانات البحرية، وللتأكيد على ذلك نجد بعض الروايات التي جاءت في مجال الردّ على بعض الاستفسارات واستشهدت بالآية المباركة، وذلك كما في صحيحة زرارة: قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الجريث، فقال عليه السلام: **وما الجريث؟** فنعته له، فقال عليه السلام: ﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ...﴾إلى آخر الآية، ثم قال عليه السلام: «**لم يحرّم الله شيئاً من الحيوان في القرآن إلا الخنزير بعينه ويكون كلّ شيء من البحر ليس له قشر مثل الورق وليس بحرام إنّما هو مكروه**» فما نلاحظه في هذه الرواية أنّ الإمام عليه السلام استشهد بالآية الكريمة ليستدلّ على عموم حليّة الحيوانات البحرية، وهذا ما نلاحظه أيضاً في صحيحة محمد بن مسلم: قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الجري والمارماهي والزمير وما ليس

له قشر من السمك أحرام هو؟ فقال عليه السلام لي: «**يا محمد إقرأ هذه الآية التي في الأنعام ﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ ...﴾**» قال الراوي فقرأتها حتى فرغت منها فقال عليه السلام: «**إنّما الحرام ما حرّم اللّه ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم في كتابه ولكنّهم كانوا يعافون أشياء فنحن نعافها**». وهذا أيضاً واضح أنّ الإمام استدلّ بالآية للحكم بعموم الحلّية.

ونتيجة الكلام أنّ الآيات الكريمة بمجملها وبتأييد استشهاد الأئمّة عليهم السلام بها تدلّ على عموم حلّية الحيوانات البحرية، وهذا يشمل جميع الحيوانات أي الأسماك التي لها فلس، و التي ليس لها فلس، وما ليس من الأسماك بالمطلق. وقد يقول البعض إنّ الآيات عامّة، لذا فقد تأتي بعض الروايات لتوضِّح أو تُخرج بعض الأشياء عن هذا العموم والإطلاق، فنقول إنّ الروايات مجموعتان، مجموعة ظاهرها المنع عن أكل بعض الأصناف من الحيوانات البحرية، ومجموعة تدلّ دلالة واضحة على الحلّية، وكمثال على المجموعة الأُولى الناهية أو المانعة، ما ورد في صحيحة محمد بن مسلم عن أبي جعفر (الباقر) عليه السلام قال: قلت له: رحمك اللّه إنّا نؤتى بالسّمك ليس له قشر، فقال عليه السلام: «**كُلْ ماله قشر من السمك وما ليس له قشر فلا تأكله**»، وفي رواية ثانية: صحيحة حمّاد بن عثمان قال: قلت لأبي عبد اللّه عليه السلام: جعلت فداك الحِيتان ما يؤكل منها؟ قال عليه السلام: «**ما كان له قشر**». وفي رواية ثالثة: صحيحة عبد اللّه بن سنان عن أبي عبد اللّه (الصادق) عليه السلام: قال عليه السلام: «**كان علي عليه السلام بالكوفة يركب بغلة رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ثم يمرّ بسوق الحِيتان فيقول لا تأكلوا ولا تبيعوا ما لم يكن له قشر من السمك**».

أما المجموعة الثانية من الروايات الدالّة على الحلّية: فمنها صحيحة زرارة المتقدمة والتي يستشهد فيها الإمام الصادق عليه السلام بالآية الكريمة من سورة الأنعام والتي يقول في آخرها: «**ويكون كلّ شيء من البحر ليس له قشر مثل**

الورق وليس بحرام إنّما هو مكروه» والرواية الثانية المتقدّمة وهي صحيحة محمد بن مسلم عن الإمام الصادق عليه السلام والتي يقول في آخرها: «**إنّما الحرام ما حرّم الله ورسوله في كتابه ولكنهم كانوا يعافون أشياء فنحن نعافها**».

والملاحظ هنا أنّ هناك عدّة روايات صحيحة ينهى فيها المعصوم عن أكل ما ليس له قشر أو فلس، ويَنهى عن بيعه، وهذا النهي قد يدلّ على الحرمة وقد يدلّ على الكراهة، وهناك عدّة روايات واضحة في الدلالة على الحلية، والمعلوم أنّ الحلّية تتوافق مع الكراهة وتتعارض مع الحرمة، وإذا عدنا إلى الحديث الصحيح القائل: «**إذا جاءكم عنّا الخبران المُتعارضان فاعرضوهما على كتاب الله فما وافق كتاب الله فخذوا به وما خالف كتاب الله فهو زخرف من القول أو فاضربوا به عرض الجدار**». كما ورد في نص آخر. فانطلاقاً من هذا الحديث الجاعل لكتاب الله المصدر والأساس والمرجع في حال التعارض، فإنّ سماحته قدس سره اعتمد على هذه المرجعيّة لكتاب الله تعالى ليقول إنّ الروايات الناهية مُخالفة لكتاب الله بعمومات آياته والروايات المحلّلة موافقة لهذه الآيات العامّة، ولذلك حكم سماحته مع بعض العلماء السابقين بحليّة جميع ثمار البحر، وفيما لم يتجرّأ بعض الفقهاء على مخالفة المشهور الذي اعتمد على الروايات المحرِّمة واعتبرها مخصّصة لعمومات القرآن فحكموا بالحرمة لما ليس له فلس.

هذا مثالٌ على منهج سماحة السيد قدس سره في إرجاع الفتاوى إلى كتاب الله تعالى، أما في مجال القواعد الفقهية فإنّ سماحته قدس سره قد أخذ من بعض الآيات التي تتعرّض لحكم معين ليستخرج قاعدة تشمل أحكاماً أخرى كثيرة، ففي مثل قوله تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ**﴾ [البقرة : ٢١٩] فقد يعتبر الكثيرون من الفقهاء أنّ هذه الآية تنحصر دلالتها على حكم

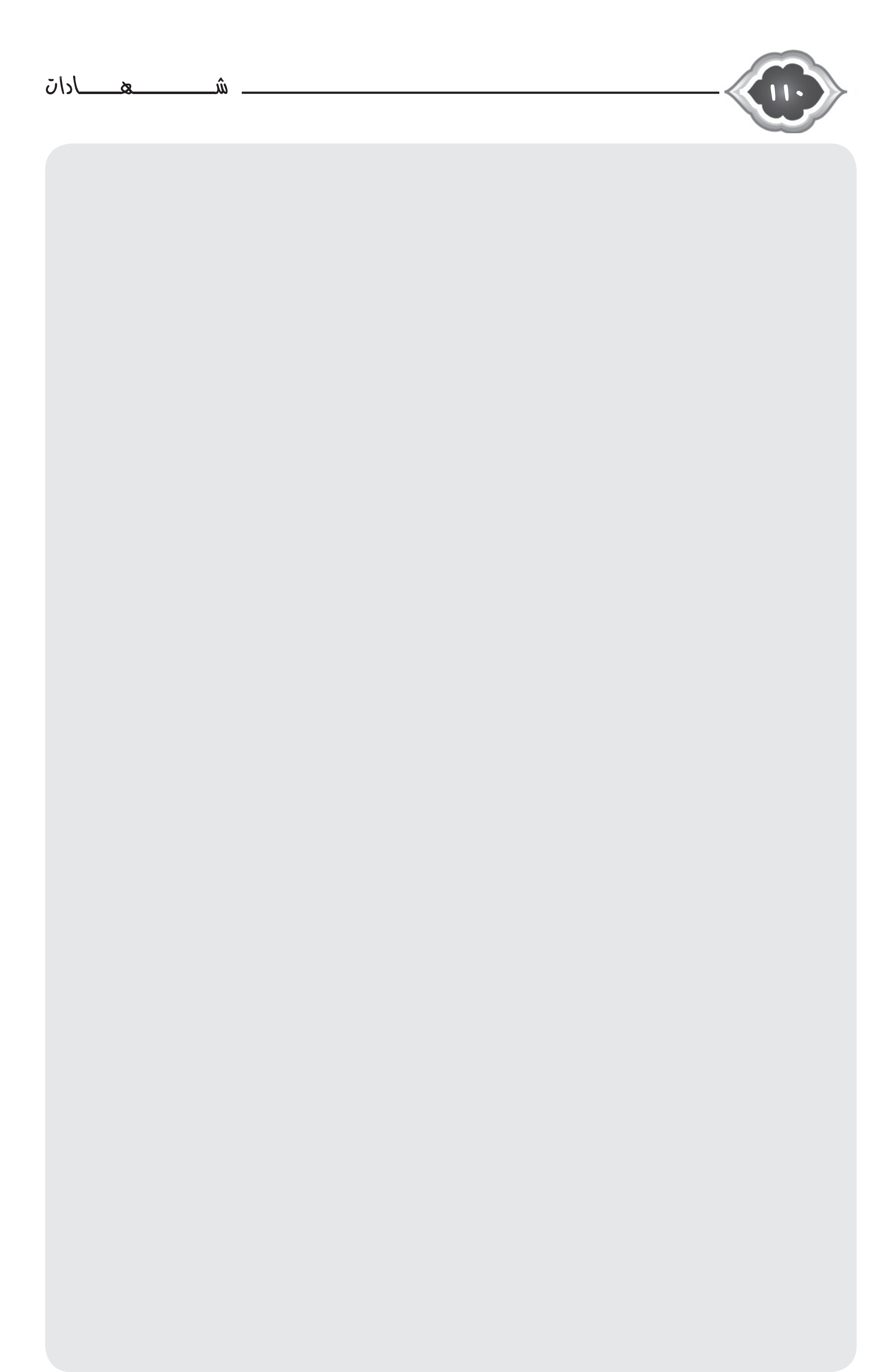
الخمر والميسر (أي القمار)، ولكن سماحته قدس سره اعتبر أنّ الآية عندما تعطي تعليلاً لحرمة الخمر والميسر بأنّ فيهما إثماً كبيراً وإنّ إثمهما أكبر من نفعهما اعتبر أنّ القاعدة العامّة هي، أنّ كلّ ما يكون إثمه أكبر من نفعه فهو حرام أيضاً حتى لو كان من مثل شرب الماء أو أكل الخبز وما شابه. أما باقي الفقهاء وإنْ أقرّوا الحكم نفسه، إلا أنّهم لم يطبّقوه، فلم يحرّموا ما كان ضرره أكثر من نفعه، و ذلك بناءً على بعض الروايات. أما سماحته قدس سره فقد أكّد أنّه لا حاجة للرجوع إلى الروايات للاستدلال على عموم حرمة ما يكون ضرره أكثر من نفعه بما أنّ الآية دالّة على ذلك، ولتطبيق هذه القاعدة بحرمة الإضرار بالنفس حكم سماحته قدس سره بالحرمة القطعية للتدخين بجميع أنواعه، وذلك بعد مراجعة أهل الخبرة من الأطبّاء ودراسة التقارير الثابتة في هذا المجال والتي تؤكّد بما لا يقبل الشكّ أنّ ضرر التدخين أكبر من نفعه، ولذلك جزم سماحته قدس سره بحرمة التدخين ولم يجعلها كما جعلها غيره من الفقهاء مُردَّدة حيث يقول أكثر المراجع في حكم التدخين إنّه إذا ثبت عند المُكلّف أنّه يتضرّر من التدخين ضرراً معتدّاً به فإنّه يَحرُم عليه وإلا فلا يَحرُم، فأرجعوا تحديد الأمر إلى المُكلَّف، ولكن سماحته - مجدِّداً - يدرس الأمر بنفسه ولا يتركه للمُكلَّف فيصل إلى نتيجة قطعية تتّصل بثبوت ضرر التدخين ولو بعد مدّة من الزمن ولم يترك الأمر للمُكلّف لدراسة هذا الموضوع.

٣. **تميّزه الأخلاقي**: كان قدس سره يتميّز بأخلاقية إسلامية قرآنية عالية قلّ نظيرها، ولا نقول هذا الكلام اعتباطاً، ولكن بعد تتلمذنا على يديه لمدّة جاوزت الثلاثين عاماً، والتي لم تكن العلاقة فيها مجرّد علاقة تلميذ بأستاذه، بل تجاوزت هذا الحدّ لنصبح كأبنائه، وكان التحرّك في مجال العمل الإسلامي في الداخل والخارج تحت إشرافه قدس سره، وهذا ما يجعل المرء يطّلع على أخلاقيّة الآخرين الذين يعيش معهم، ولذلك كنّا نرى تواضعه لنا وللنّاس الآخرين بمختلف طبقاتهم واضحاً جليّاً، وقد برزت هذه الأخلاقية في المرحلة التي بدأت فيها

الحرب على سماحته من بعض المُعمَّمين والعُلماء وقرّاء العزاء والعوام التابعين لهم، ونقصد بذلك الحرب على أرائه الفقهيّة والفكريّة والتاريخيّة والتي وصلت إلى حدّ تكفيره والحكم عليه بأنّه ضالٌّ مُضِلٌّ، وتحريم تقليده وما شابه وإلى حدّ الافتراء عليه ونسبة أشياء إليه لم يقلها ولم يعتقد بها.

في هذه الفترة بالتحديد كان أحد العُلماء البارزين في لبنان يُحارب سماحته قُدِّسَ سِرُّهُ ويتكلّم عليه بالسوء، ورغم ذلك كان سماحته قُدِّسَ سِرُّهُ لا يتكلّم عليه إلا بكلّ خير سواء في مجالسه الخاصة أم في المجالس العامّة وعلى المنابر، بل إنّه عند وفاة ذلك العالِم فإن سماحة السيد قُدِّسَ سِرُّهُ امتدحه وتكلّم عنه بكلّ إيجابية من على منبره في مسجد الحسنين عليهما السلام في خطبة الجمعة. وهناك عالِم آخر كان ينتقص من سماحة السيد قُدِّسَ سِرُّهُ، وكان سماحته يدعو له بالهداية وعندما توفي هذا العالِم جاء أحد معارفه وطلب من سماحة السيد قُدِّسَ سِرُّهُ مسامحته فلم يتردّد في ذلك، وقال له إنّه يسامحه. هذه الأخلاقية المُتسامحة والصدر الواسع والقلب الرحوم قلّما نجدها عند إنسان عادي، بل عند الكثير من العلماء ولا سيّما إذا تعرّض الإنسان إلى مثل هذه الحرب العنيفة التي تعرّض لها سماحته قُدِّسَ سِرُّهُ. وفي أسوأ الحالات كان سماحته لا يُهاجم أحداً من مُهاجميه إنّما يقول «لي وقفةٌ معهم عند الله تعالى».

هذا قليلٌ من كثير، وغيضٌ من فيض فيما تميّز به سماحته قُدِّسَ سِرُّهُ سواء في الجانب الفقهيّ أو الفكريّ أو الأخلاقيّ أو العمليّ وما شابه. ولا أُبالغ إذا قلت إنّنا لو أردنا أن نستقصي الأمر فنحتاج إلى الكثير من الكتابة والقول، ويكفيه قُدِّسَ سِرُّهُ أنّه عاش من أجل الإسلام على خطّ أهل البيت عليهم السلام، وانتقل إلى جوار ربّه على هذا النهج والخطّ، ولم تأخذه في الله لومة لائم. فسلام عليه يوم وُلِدَ ويوم انتقل إلى جوار ربّه ويوم يُبعث حيّاً، وفي ذلك اليوم تظهر الحقائق ويندم من أخطأ حيث لا ينفع الندم.





الفهرس

لقـد درّبنـا أن نعيشـ للإسـلام،

وهكـذا سنبقى بـإذن الله.. نستلهم

عشقه الربّانـي، ولطالما ردّد أمامنا:

«إنّي مولعٌ بالإسـلام أتبعه» سنتبعه

اتّباع الفصيل إثر أمّه..